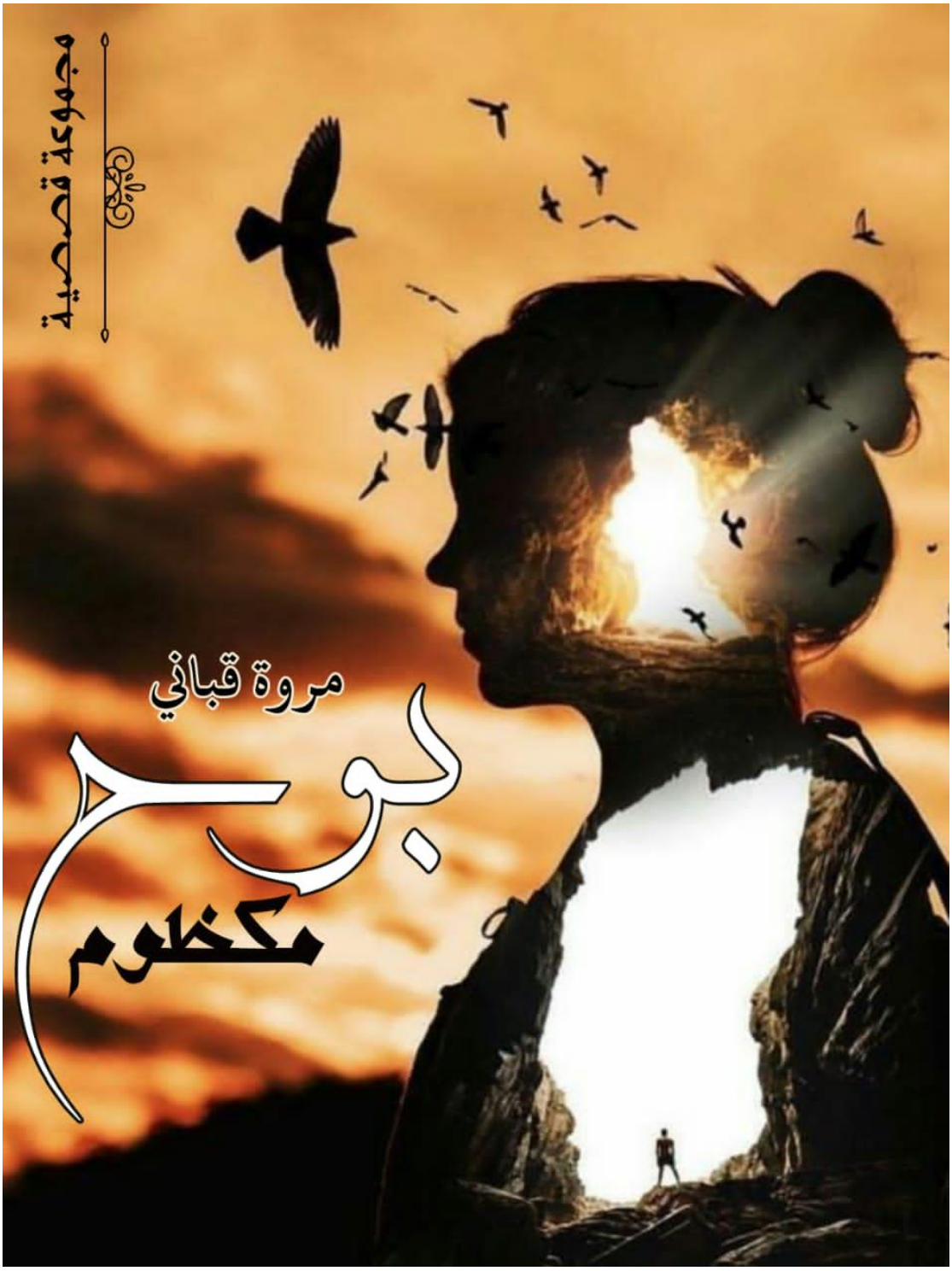
مجموعة قصصية
مروة قباني
بوح
مكظوم

مروة قباني

بوح مكظوم

مجموعة قصصية

التدقيق: مروة كيال

تصميم الغلاف: إخلاص الإدلبي

ا لإ هـد ا ء :

إلى المرأة التي كانت الشمس الدافئة والحياة، والأمل الجميل في غدٍ أفضل.

إلى أمي العزيزة.

إلى المرأة التي كانت لي القلب الدافئ ساعدتني وأعطتني الوقت الكافي لأستطيع مواصلة الكتابة.

إلى والدة زوجي الحبيبة.

إلى النهر العذب الذي نجلس أمامه للهروب من صعاب الحياة، إلى سندي في هذه الحياة وأول فارس أحلامي وحبي الأول والأجمل.

إلى والدي العزيز.

إلى شريكي في هذه الحياة، ومن يضع يده في يدي على مدى سنوات، قام بمنحي أجمل وأغلى ما في الوجود فلذة كبدي.

إلى زوجي أيمن العزيز.

إلى الفتاة التي صبرت على مزاجيتي وكانت لي السراج المضيء، فتحمّلت مشقة الدرب معي للوصول، كانت لي الأخت والسند والقمر المنير.

إلى شقيقتي في هذه الحياة إخلاص ددو.

إلى من عاشوا معي الحياة بأكملها وكانوا لي القوة والسعادة في هذه الحياة، فكانوا الحياة بأكملها.

إلى أشقائي الأربعة يزن ومعن ومعاذ وأمير.

إلى صديقتي ذات الروح الجميلة، والتي أهدتني أجمل هدية من الله بأن أصبح خالة، ذات القلب الطيب.

إلى صديقتي جنات العضم.

وفي النهاية أهدي حروفي وكلماتي إليكم، لتسموا داخل سماء كون يعانقنا وإن لم يجمعنا ذات صدفة، حروفي كتبت من أجلكم أنتم.

أتمنى أن تنال إعجابكم والله ولي التوفيق.

المقدمة

في هذه الحياة التي نعيشها يتواجد داخل أرواحنا أحلام تولد معنا وتكبر كما نفعل نحن تماماً،

لتصبح ملاصقة لنا تذهب أينما ذهبنا وتسكن هواجسنا وواقعنا، لكن يبقى **للقدر** رأي آخر في التحكم بتطلعاتنا وما نصبو إليه، ليصبح جميع

ما أحببناه وتملَّك داخلنا مجرد **هوس** ونهاية مسرحية حزينة،

فتسدلُ الستارة الحمراء قبل أن تبدأ، **وتمضي بنا الأيام** دون الشعور بالوقت الذي يمضي

ونحن نحاول كتابة **رسائل لن تصل** إلا في وقت متأخر جداً،

لنجد بأن **النسيان** نعمة من الله، فلولاه لما استطعنا الصمود أو حتى الوصول إلى هذا المكان، قيل لي ذات مرة بأن النسيان هو الزهايمر في عالم الطب، ونحن نعلم بأن بعض الجهل معرفة،

وإن هذه القصص والحكايات هي وإن لم تكن واقعية لكنها تسكن داخل كل واحد منا ولو بالشيء القليل.

ويبقى **البوح** بها **مكظوم** بسبب عادات وتقاليد حكمت حياتنا التي نعيشها.

عزيزي القارئ هذه الحكايات نُسِجَت داخلي وأودعتها داخل قلبي لتتعايش معي وأتعايش معها وتصبح بعمر ابني الأكبر خمس سنوات، سكنت معي داخل عالمي وبين جدران غرفتي فشهدت معي أجمل اللحظات وأكثرها حزناً، فأصبحت جزء مني وأصبحت البعض منها، هذه الحكايات ليست مجرد حروف متراصة بل أرواح تستوطن داخلها تنضب في الحياة بقوّة،

أتمنى لك قراءة ممتعة داخل عالم الحكايات.

القصة الأولى:

حب على قيد القدر

قيل لي ذات مرة بأنَّ الحُبّ هو أسطورة عن إحدى المدن البعيدة، والتي قاموا بتشييدها سكان الأرض منذ الأزل، عندما رأيت قناديل العشاق في إحدى الحارات الدمشقية، علمت بأني ابنة تلك المدينة التي خُلقت بها تلك الأسطورة العظيمة.

في هذه الحياة نحن نقف أمام ضفتين ألا هما النور والظلام، السعادة والحزن، والكثير من الأشياء التي نمضي بها، نحن من نختار وجهتنا لا علاقة للقدر بما يؤذينا سوى أننا قررنا المضي داخل هذا الطريق دون التفكير بالعواقب المترتبة عليه.

ذات شوق كنت ممسكة بصورة في اللون الأبيض والأسود لامرأة شابة قيل لي بأنها والدتي، تلك التي لم أحظى باحتضانها أو تقبيلها، كانت أمنيتي الوحيدة

بأن أحظى بعائلة سعيدة ومتماسكة كما يفعل بقية الأطفال من

حولي !١

فتحت عيني ببطء شديد على صوت أجهزة كهربائية لأجد نفسي ضمن غرفة في مستشفى، كانت الشمس المشرقة والدافئة تبعث السلام داخل أرجاء المكان، أما عن الهدوء الذي تميل إليه الأجواء الطبية، لم تكن مريبة لفتاة عاشت داخل الأجواء الريفية في هذه الحياة، حاولت تذكر سبب قدومي إلى هنا بالرغم من كوني لم أكن مريضة في الأمس ولا أشعر بالإعياء.

بعد عدة دقائق دخلت ممرضة كانت تمشي بذهول وقلق، حتى أنها تراجعت للخلف عندما رأتني أحرك رأسي في جميع الأرجاء، فتراجعت عدة خطوات للوراء وقد اتسعت حدقات عينيها ثم قامت بالالتفات والعودة من حيث أتت.

لم تدع لي الفرصة للسؤال أو حتى التحدث، بعد ثلاثة عشر دقيقة من رحيلها عادت لكن هذه المرة برفقة شخص آخر اعتقدت بكونه الطبيب الذي قام بالإشراف على علاجي، اقتربت مني بخفة ونشاط وسألتني إذا كنت أود

النهوض فوافقتها الرأي، كانت تمسك بمرفقي لتساعدني في النهوض و الجلوس على المقعد أمام طاولة مصنوعة من الزجاج

مستديرة الشكل وُضعت أمام نافذة تطلّ على الحديقة الخلفية كما قد خمّنت، جلس الطبيب على المقعد المقابل لي واضعاً أمامه آلة تسجيل يدوية بسيطة الشكل والاحترافية، نظرت إلى داخل عينيه كانتا ساكنتين والابتسامة معلّقة أسفل ثغره، وضع كلتا يديه أمامه على الطاولة قبل أن يبدأ بحديثه الذي شعرت بأنه رددده أمام المرآة لعشرات المرات قبل القدوم، فلقد كان حريصاً على انتقاء كلماته والجمل بشكل دقيق، مسترسل الحديث وكأنّه لا يود تفويت أي مقطع منه أو استبداله بشيء آخر.

جلّ ما قد استطعت استيعابه بأنني فاقدة للوعي منذ سنة كاملة وبأنه لا يوجد أي شخص أتى للبحث عني، سألته عن المكان الذي تتواجد به المشفى ليقول لي بكل هدوء: نحن الآن في كانتا!

همست داخلي بفزع وقد اتسعت حدقات عيني من هول المفاجأة، ماذا؟ هل أنا حقاً في كندا، وما الذي حصل تحديداً قبل رحيلي؟

نصحني بالكتابة وممارسة بعض الرياضة في الهواء الطلق، علني أسترجع ذاكرتي لأعلم ما الذي حصل معي قبل سنة من الآن!

غادرت إلى منزلي الذي عشت داخله أيام دراستي الجامعية، أو ربما عقد كامل من العمر، كان يقع أمام نهر يفصل بين مدينة كانتا وكيبيك، قالت لي إحدى الممرضات بلغة إنكليزية ضعيفة، بأنَّه يتوجب عليّ حضور جلسة عند السابعة صباحاً يومياً، كل شيء يدور بلا توقف، شعرت بأن الزمان يركض بسرعة فائقة وأنا أقف عند الزاوية غير قادرة على الحراك أو الاستمرار.

قمت بجلب دفتر ملاحظات وقلم جاف، قبل الدخول إلى المنزل الذي كان عبارة عن غرفة نوم وغرفة استقبال وشرفة تطلّ على النهر، حضرت لنفسي كوباً من القهوة وجلست إلى الشرفة واضعة إلى جانبي الورق والقلم.

أغمضت عيني قليلاً فصدرت عني ثلاث تنهيدات، من أصعب الأشياء التي قد واجهتها دوماً هي البدايات، كيف بإمكاني البدء بالحديث دون فعل شيء مربك، وماهي البداية الجيدة للكتابة، وما الذي حدث معي قبل سفري من الكويت، جلَّ ما استطعت تذكُّره هو عودتي للكويت وتمضية العطلة الصيفية برفقة والدي وشقيقاتي اللتين كانتا في أوج حماسهما كما في كل مرة فهل بإمكاني اكتشاف هذا اللغز الذي بلغ عمره عام بأكمله!

لذلك قررت البدء بالكتابة عن نفسي، أعلم بشكل جيد ما تمتلكه من نقاط ضعف وقوة، على الرغم من محاولاتها البائسة لإخفاء ما تراه مقلق لمن حولها إلا أنني سأقوم بالبوح به على سبيل القوة لا الضعف، إيلين التي عشتُ معها وتعايشت داخلي منذ وجودي على وجه البسيطة، كانت أحلامي بسيطة جداً، وهي لو أنني خُلقتُ كأيِّ فتاة تعيش بين عائلة سعيدة ومتآلفة بيت صغير والكثير من الحب..

لم أشاهد إلا الأساور العاتية الممتلئة بالبرودة والقسوة معاً..

لم أر سوى بقايا عائلة تلهث أمام النقود وتغريها الفنادق الفاخرة، عِشتُ طفولتي بين والدي الكثير الانشغال وزوجته التي تذكرني دوماً بأنني الفرد الزائد على عائلتها السعيدة، ربما البعض يتساءل كيف بإمكان المرء الكتابة لذاته، حتى أنه قد يكتب لمن أحبَّ رسائل يومية، حاولت بشكل جدّي استحضار أكثر الكتّاب شهرة وقرباً من الناس ألا وهو كافكا، ذلك الكاتب الذي كتب لحبيبته كثيراً وكتبت له أيضاً، دعوته لاحتساء فنجان من القهوة على شرفة منزلنا المطلة على أشجار الزيتون، على الرغم من عدم مكوثي داخله إلا في العطل الصيفية وعودتي للمدرسة الداخلية أول الشتاء ، لكن ولربما اخترت الماضي لأنني كنت فيه أكثر جرأة، وحينما أتى

تقدم بهدوء وجلس مقابل لي، ابتسامة ساخرة تقف بتكبّر واستهجان.

وضع يديه أمامه على الطاولة وهو يقول لي بلكنة عربية غير متقنة: هل يمكن للمرء الكتابة لنفسه، أم أنّك لا تمتلكين الحب الكافي!

أشحت نظري عنه وأنا أشاهد السماء الصافية، ولربما لا يتوجب عليّ سوى قول الحقيقة تلعثمت حروفي فقلت له : لم تكن حالتي أقلُّ حُبَّاً مِنكَ يا كافكا إلا أنَّك وجدت من يَكتُبُ لَك وأنا لم أجد من يقرأ لي.

بدت ملامح وجهه تلوح للحزن وعينيه تلمعان بشدّة، نهض من مكانه وغادر دون أن ينبس بشفة، أو حتى إكمال القهوة التي أعددتها له بنفسي!

عادت بي الذكريات إلى اليوم الذي بدأت صداقتي مع الحروف منذ زيارة السيدة وحدة التي قامت بتذكيري بأن لا شقيقة لي هنا تتقاسم معي لحظات الحزن أو السعادة، لا دردشات ليلية أو حتى تخطيطات أنثوية، لا مشاحنات هنا حيث يتواجد الكثير من الصمت والالتزام اللامتناهين.

منذ رحيلي نحو المدرسة الداخلية بِحُجّة حاجتي للتعليم الخارجي كما قالت لي زوجة والدي مُنى، في ذلك اليوم قاما بتوديعي من صالة المطار بعدما دَفَعَ لي بتذكرة السفر وأوراقي ضمن حقيبة حملتها على ظهري، لم أشعر بشيء حينها، كُنتُ كالثقب الذي لا يملأه شيء عدا الفراغ الغير عقلاني، والكثير من الترف في الرحلات نحو عالم نُسِجَ من الخيال، وقد قرأتُ الكثيرَ من الرواياتِ المتحدثة عن الحب منذ أقدم العصور، وفي إحدى الليالي أخبرتني جنيّة الحرف.

يُقال بأنّ الحُبّ قد غُزِلَ من العصور السابقة وأصبح أسطورة يتجمَّلُ بها كل مسكين لم يَعُد له سواه ليحكي عنه، لكن ما نفع الحياة دون شغف الحُبّ، الألم الذي يأتينا منه هو الذي يدفع بنا إلى الأمام نحو الوصول إلى القمة، فلو كانت الحياة سهلة لكان الجميع قد رَضي بما لديه، وهذا الحُب هو الذي يجعلني أعود

في دهاليز عقلي نحو منزلنا القديم، الذي عشت داخله لحظاتي السعيدة القليلة، بصحبة شقيقتي تَرَف وحنين حيث الأجواء الريفية الجميلة والهواء النقي، إلا أن اللوحة بدت جميلة جداً ومريحة للنظر، أما الآن وقد رحلنا عنه ذات ليلة دون عودة أصبح كالذكريات التي جمعتنا به مجرد صور فوتوغرافية نقوم بالنظر إليها من حين لآخر لمجرد استعادة السعادة التي كانت تغمرنا آنذاك، نعم لم أكن محظوظة بوجود أم تحبني في هذه الحياة، إلا أنني أعلم جيداً بأنها لو كانت موجودة إلى الآن لكانت أجمل أم على وجه البسيطة.

كانت الشمس عند المغيب عندما تنبّهت لشرودي أمام الهواء العليل، لا أعلم كم من الوقت مضى على رحيلنا من وطننا الآمن، لكنني اشتقت إليه وللحضن الدافئ الذي كان يغمرني به عوضاً عن أمي الراحلة.

نهضت من على المقعد لأتهاوى على السرير وكأنني تلاشيت من واقعي المتأزم إلى مجهول لا أعلم عنه شيء.

بيد أن كل شيء حولي مجهول، لذلك قررت الذهاب إلى الطبيب، علَّه يجد لي الحل الأنسب.

مع شروق أشعة الشمس الأولى، ارتديت ملابسي للذهاب إلى العيادة الطبية قبل أن أجد ورقة بيضاء كُتب عليها كلمات عشوائية، تاريخ محدد ٢٠٢٠/١/٤ مطار كانتا

وإلى جانبها وضع دفتر ملاحظات بغلاف أسود سميك، جلست إلى جانب الخزانة وبدأت أتصفح الأوراق وأنا ألتهم الحروف التي تُحلّق فوق سماء الصفحة البيضاء

كانت الكلمات قد سُطّرت داخلها بشكل مُنظَّم مُتراصَّة بثبات، أمَّا يدي المرتجفة كانت تقلب بين الصفحات بِوَهن.

يتواجد في بعض الأحيان تعقيدات تعرقل مسار أحلامنا، ومنها ما يقف بوجه تلك الأحلام، گ العادات والتقاليد المقيدة ومنها مازالت إلى الأن

مشوار الألف ميل قد ينتهي بقرار خرج عن إطاره ينهي بعدها بمأساة أحلام على وشك أن تتحقق وهذا ما حصل مع اسام.

اسام شاب طموح وله أحلام بعيدة يسعى جاهداً لتحقيقها من تلك الأحلام التي يعشقها فن النحت بالصلصال وبناء تلك المجسمات الرائعة

ولكن بعض العادات والتقاليد المقيدة حالت ما بينه وبين حلمه ليشعر أن تلك الأحلام بدأت تتلاشى أمام عينيه وإنها أصبحت بعيدة المدى

لديه أخ يكبره بسنتين وهو مطيع جداً لوالديه وكل ذلك لأجل المنصب والمال، وكل من حولي يركض لأجل مصلحته دون تحقيق أي إنجاز لنفسه أو هدف

أتذكر نفسي منذ الصغر وأنا أعيش تحت سلطة لا مجال للابتعاد عنها أو حتى إبداء رأيك لأي حدث كان ومن ضمنها حياتك ومستقبلك وأحلامك البعيدة

كان كل شيء حولي سهل المنال وهذا لأن والدي صاحب أكبر شركة إصدارات وتصدير ولكن مع تطور الحياة ما زال هناك والدي

متشبث بحياة والده وجده والتي ولد عليها ولا زال، لا شيء يقف في وجه لأجل مصلحته لنفسه ثم لنا

ذات يوم تشاجر والدي مع أحد العاملين في الشركة وهو رجل يعمل في قسم المحاسبة، فقد كان يزور بعض الشيكات وإرسالها لحسابه

ولأن مدخل الشركة عاليا لا بأس من اختلاس بعض المال دون أن يعلم أحد

اتصل والدي على الأمن، وبدأ الرجل يتوسل والدي أن يعفي عنه، عندها دخل أخي الكبير وبدأ بضرب الرجل حتى وقع أرضاً، تدخلت فيما بينهم وإذا بوالدي يصرخ في وجهي ويأمروني أن ابتعد

شعرت بالخجل من العمال الذين احاطوا مكتب والدي فخرجت مسرعا إلى الخارج دون أن التفت ورائي وعندما وصلت بوابة الشركة إذ بأحد الشباب الذي من عمري يستوقفني وقد جمعتنا صداقة قوية ولكنها خارج الشركة فلا شيء اسمه صداقه من وجهة نظر والدي فكل شيء حوله مبني على الكذب والخديعة ومصلحة ما؟

بدأ يسألني وأنا اتهرب منه للخارج وما أن ركبت سيارتي إذ به يركب معي

-شعر بالصداع هل لك أن تشتري لنا قهوة

تبسمت رغم ما حصل معي

-يا لك من صديق فارغ المشاغل، كما تشاء لك هذا

بدأ يحدثني عن مكانا كان يذهب إليه مع بعض أصدقاء ويمارسون بعض النشاطات فيها يسمى الفنون البصرية والتي تقتصر على بعض الأعمال ك التصوير والنحت والرسم وبعض الأعمال الأخرى

-إنه يذهب إلى ذلك المكان في وقت فراغه فقد كان يعشق التصوير الفوتوغرافي وحبه للتصوير فقد شاهدت بعض من أعماله كانت في منتهى الدهشة والروعة.

- ربما سأذهب معك إلى ذلك المكان في يوم من الأيام

نظر إلي تلك النظرة التي يملأها الاستغراب ثم قال لي وماذا عن والدك؟

نظرت إليه ثم أكملت قيادتي للسيارة وأنا أسأل سؤاله لنفسي لم يعد لدي جواب ربما فشلت في اتخاذ أي قرار لنفسي؛ أو ربما اليأس والانصياع وراء رغبات والدي هي ما جعلتني مقيدا وخائف

وما أن وصلنا إلى إحدى المقاهي ترجلت بسيارتي وقبل أن يفتح صديقي الباب لينزل مسكت يده ثم قلت له سيكون هذا فيما بيننا

فوضع يده الأخرى فوق يدي قائلاً اطمئن، والأن ألا ننزل؟

بعد عدة أيام سافر والدي إلى أحد المدن لعمل صفقة ما، فاتصلت على صديقي ليأخذني إلى ذلك المكان وبعد عدة اتصالات رد على الهاتف وكان صوته مثقلا

- لم لا تجيب على الهاتف أيها الابله

- أريد أن أنام، اتركني وشأني فوالدك لا يرحم أحداً إن تأخر على عمله فاليوم أجازه وأريد أن ارتاح

- ولكنك وعدتني أن نذهب إلى المكان الذي حدثتني عنه؟

فبدأ صديقي بإصدار بعض التنهدات، ثم قال حسنا اذهب انت وأنا سألحق بك

أغلقت هاتفي ثم ذهبت إلى المكان الذي وصفه لي، انتابني شيء غريب داخلي ثم أنظر إلى نفسي وهيئتي وسيارتي الفارهة،

ثم بدأت اسأل نفسي وأنا أشعر بشيء داخلي غريب وكأن هناك من يجرني إلى المكان، ماذا لو عرف والدي ما أفعله؟ ماذا سيحصل؟

وما أن وصلت المكان الذي يعج بالشباب والشابات من مقتبل عمري شعرت أنهم سعداء والفرحة تغمر وجوهم

الكل بدأ يمارس فنه الذي يعشقه بكل حب وتفاني، بدأت اتجول بالمكان وإذ بي أرى فتاة يداها متسختان بالطين والوحل، وشعرها الغير مرتب يبدو عليها الفوضى العارمة لم أرى فتاة من قبل في هذه الهيئة فقد اعتدت على رؤيتهن بكامل من الاناقة والترتيب، ثم ما إن نظرت إلي تجاهلتها فوراً وبدأت أحدق من حولي

فقالت لي وهي تنظر إلى ذلك المجسم الذي يتشكل بين يديها بكل سهولة وإتقان، هل تريد أن تجرب؟

نظرت إليها ثم قلت: لا أتقن مثل هذه الأعمال، رغم حبي له، جئت لأرى صديق لي وأنا انتظره

ثم بدأت تحدق بي من أسفل قدمي حتى رأسي، فتبسمت وقالت: هيئتك لا توحي إنك من هذا المكان، ما لذي جاء بك إلى هنا؟

فقلت لها دون تردد أو إدراك: جئت أمارس حريتي المسجونة

لم يوحي في ملامح وجهها أي ردة فعل أو استغراب، بل نزلت من ذلك الكرسي الخشبي الذي يدور تحت منه قطعة خشبية بشكل دائرة

ثم بدأت تمسح يديها بقطعة قماش قطني، ثم قالت: تعال ومارس حريتك فقد أصبت المكان وإذ كان هناك غضب في داخلك فهذا الطين والصلصال قد يخففان غضبك وستشعر لو أنك تحلق في سمائك

- ولكني لا أعرف؟

- لم نولد في هذه الحياة ونحن نعلم كل شيء

وما أن اقتربت من الكرسي ثم جلست عليه ووضعت قدمي على ذاك اللوح الخشبي وبدأ يتحرك من قدمي حتى شعرت أن ثقلي بدأ يختفي تدريجياً، شعور جميل لم أجد له وصفا

اتسخت ثيابي بالطين والماء وأنا أشكل تلك المجسمات التي لم اتمكن حتى بمسك الصلصال فلم يكن لدي تلك الموهبة، وما أن بدأت أمسح جبيني من ذاك الرذاذ المتطاير حتى ملأت وجهي بالطين، بدأ وجهي مضحكا، ولكن إلى الأن لم يضحك علي أحد

وماهي إلا لحظات حتى دخل علي صديقي الذي كان يبحث عني في المكان، وقف مذهولا مما يراه،

فقال لي والدهشة تملأ وجهه: اسام أهذا أنت؟ لم أعرفك يا صديقي وبدأ بالضحك والقهقهة علي

وما إن نظرت إلى نفسي في المرآة حتى انتابني موجة من الضحك الهستيري،

فقالت له الفتاة: صديقك لا يصلح لهذه الأعمال

ثم التفتت إلي وقالت: إن كنت تنوي أن تأتي إلى هنا مرة أخرى، فاترك حياتك المسجونة ولتأتي بحريتك

عدت المنزل وأنا أشعر لو أن هذا العالم اتسع لي والهواء يكفيني والأرض تمددت من أمامي،

وإذ بأمي تراني وثيابي متسخة بالطين، أسرعت إلي والخوف يملأ وجهها

فقالت لي: ما بك يا عزيزي لما ملابس متسخة؟ هل تشاجرت مع أحد؟

لم تترك لي أمي مجال للحديث، وما أن انتهت من الحديث

حتى قلت لها: لا شيء يا أمي كل ما هنالك أن سيارتي توقفت في الطريق والطقس ممطر فقمت بإصلاحها واتسخت ثيابي، سأذهب لاستحم

ومنذ ذلك الوقت وأنا اهرب من سجني إلى هذا العالم الحر، لقد عشقت فن النحت بالصلصال وتلك المجسمات التي تتشكل بين يدي كيفما أشاء

وبعد عدة أيام حصلت مشاجرة بيني وبين أحد الشباب إلى أن طعنته في خاصرته بأحد الأدوات فأسرعت هرباً وكان هناك مجموعة من الشرطة فأسرعوا بالإمساك بي ثم اتصلوا على والدي الذي لا يعلم ما أفعله من وراءه

وبعد أن أنهى والدي تلك القضية بدفع مبلغاً من المال إلى ذلك الشاب الملقى في المستشفى، ذهبنا إلى المنزل وما أن وصلنا حتى التفت إلي وصفعني على وجهي ثم قال لي: من أنت حتى تأخذني إلى الشرطة، ألا تعلم من أنا أيها الغبي يبدوا أنني لم أقم بتربيتك جيدا، أنظر إلى أخاك إنه لا يعصي لي أمراً إلا يجب أن تكون مثله

لن تعقل إلا إذا زوجتك، أذهب إلى غرفتك الأن ولا تخرج منها ابداً

وماهي إلا أيامًا معدودة حتى بدأ أبي يبحث لي على فتاة، وذات يوم أرسل لي الخادمة، فذهبت مباشرة إليه طرقت باب مكتبه ثم جلست ورأسي مطأطأ وماهي إلا لحظات حتى طوى تلك الملفات

ثم قال لي وهو ينفض سيجارته في المدخنة، لقد خطبت لك ابنة مدير المحاسبة اسمها إيلين فتاة مطيعة لوالديها وهم ما زالوا متمسكين بعاداتنا وتقاليدنا، سآخذ منهم موعداً رسمي كي تراها، حضر نفسك من الأن

ثم أشار الي بالانصراف، خرجت دون أي كلمة مني لقد كنت عاجزاً تماماً من الدفاع عن نفسي وحياتي ومع من ارتبط

وفي يوم اللقاء ذهبنا إلى منزل العروس، العروس التي سوف أجبر على العيش معها، وما إن وصلنا حتى بدأوا يرحبون بنا بشيء من المبالغ فيه، بدأ لي كل شيء حولي صارخ ومزيف، الورود والضيافة والاستقبال، يبدوا أن أهل الفتاة لم تصدق خبراً، أن يتقدم لها شاب مثلي يا لها من حمقاء ستكون أتعس فتاة في الوجود

وما إن جلسنا ورأسي مطأطأ إلى الأسفل فما رأيته كان كافياً ليجعل هذا الحدث صفقة قوية ومربحة لوالدي وأظن لوالدي العروس أيضاً.

وماهي إلا لحظات حتى جاءت الفتاة، لم أستطع أن أحدق بها أو حتى النظر إليها، فقد كانت تلقي السلام على والدي، وهم يثنون عليها بالجمال وحسن الأدب

ثم طلبت والدتها أن تقدم القهوة إلى الضيوف، وما إن وصلت إلي حتى أخذت الفنجان دون أن أحدق بها، لم أرى منها شيئاً سوى قدماها المكشوفتين وطرف من فستانها الوردي، توقفت لحظات تحدق بي، كأنها تتأمل هذا الجسد بروحه العارية

وبعد الضيافة والحديث الساخن الذي يملأه المجاملات ما بين والدي ووالد الفتاة، بدأ لي الحديث مملاً يملأه الضجر مرت عدة ساعات وأنا في صمت مطبق والفتاة تحدق بي والدهشةُ واضح على وجهها

بدأت أسأل نفسي أتراها تعرفني أم أصابها الدهشة من هذه الصفقة والكسب المربح ، كم أشفق عليها هناك أحلام تحوم حولها ولا تدري أنها ستكون أتعس فتاة في هذا الكون وما أحلامها سوى شتات في مقبرة الحياة

وبعد لحظات من هذا كله وقف والدي ليهم بالمغادرة فتبعناه مباشرة، ثم ودعونا عند بوابة القصر، لم يختلف وداعهم عن ترحيبهم كلاهما بدأ لي مزيفاً ونحن في السيارة

قال والدي: سيكون العرس بعد شهر من الأن فقد حددت موعداً مع والدي العروس، فقلت في نفسي لم يكن موعداً بل كانت صفقة خاسرة أنهيت بها حياتي

ومن العادات والتقاليد عند أهل الفتاة أنه لا يمكن أن أراها إلا إذا كان كل شيء رسمي

كان الوقت يمر يمشي ببطء شديد وكأني على حبل المشنقة أعد فيها قرب ساعات موتي

قضيت كل ذلك الوقت بين الطين والصلصال لأخفف على نفسي ذاك الثقل الذي يطبق على روحي، كنت أذهب متخفيا أغير هيئتي فأبدوا مثل هؤلاء الناس البسطاء الذي لا يكترثون لشيء في هذه الحياة كانت حياتهم يعمها الهدوء والسكينة

لم أكن أدري أن إيلين أيضاً تهرب من سجنها كنت اظنها فتاة ساذجة كبعض الفتيات الاتي يغرهن المجوهرات والمال والملابس الباهظة الثمن

ذات يوم شعرت أن هناك من يتبعني، فلم اكترث للأمر، وتكرر الأمر عدة أيام وذات يوم اوقفتني فتاة وهي تنادي باسمي فالتفت إليها كانت نفسها الفتاة التي تصادمنا وحدث بيننا شجار، كانت فتاة غريبة الأطوار حينها

وما أن اقتربت نحوي وهي تبتسم حتى ثم بدأت تضحك حتى ما عادت تصمت وبينما أراها كذلك حتى انتابني ضحك ولو إني لم أعرفها لكن هناك شيء مختلف فيها تلك الفتاة التي ظهرت نوع من

الشراسة وها هي أمامي فتاة بريئة لطيفة رغم فضويتها وشعرها المرفوع عالياً وتلك الخصل المموجة التي تنزل أسفل وجهها

لا أعلم ما أصابني وكأن سهماً وقع في قلبي ورجفة لم أعهدها من قبل يا له من شعور جميل أعجز عن وصفه

وعندما انتهت من الضحك قالت وهي تمسح دموعها بطرف أصابعها المليئة بالألوان

اسام يبدو أننا نهرب من قدرنا إلى قدر أخر، لا أريد أن أسألك ماذا تفعل هنا؟

فأنا أعلم تلك الاجابة،

ثم نظرت إلي برهة وكأنها تحاول تأكيد تلك الملامح التي إلى الأن أصابها الدهشة

_ يبدوا إنك لم تعرفني يا اسام؟ أنا إيلين خطيبتك التي قدمها أهلي لك هدية من أجل صفقة ما؟

فقلت في نفسي وأنا أمعن النظر إليها، يالِ جمال تلك الملامح البسيطة بعيداً عن الاصطناع وخداع الروح والنفس، لا أعلم ما أصابني حينها ولكن كل ما أعرفه شعرت بشعور خفي داخلي، أهو ما يسمى بالحب؟ هل وقعت في حبك يا إيلين؟

وماهي إلا لحظات حتى عدت إلى سابق عهدي

_ كان للقدر أن يجمعنا كي نضع حدا لما يجري حولنا فقد تعبت من هذه المثاليات والتصنع والخداع لقد كنا أنا وأنتِ مجرد صفقة بسيطة جداً لوالدي

قالت والدهشة والاستغراب واضحاً عليها: ماذا تقصد؟

_ هناك حديث كثير أريد أن أخبرك إياه يجب أن نبتعد من هنا كي لا يرانا أحد، هناك مكان بعيدا عن الأنظار سنلتقي فيه قريباً

غادرت وهي ما زالت واقفة بمكانها، لربما انتابها أملٌ بسيط للنجاة من هذا القدر

وذات يوم كانت السماء مليئة بالغيوم الكثيفة التي حجبت شعاع الشمس، كان كل شيء حولي يختبئ، أعجبني برودة الطقس ولطفه وفي حين أخر كأنه يقول اختبئوا كي لا تبللوا أشياءكم الصامتة فلو خرجت سينتابها صراخ تعجزوا عن كتمه

وما هي إلا لحظات حتى أتت إيلين في الموعد المحدد كان كل شيء فيها طبيعي بل مارست حياتها الطبيعية التي كانت مقيدة بها مشيتها جلوسها حركة يداها عندما طلبت النادل ليجلب لها قهوتها المفضلة، بدأت أنظر إليها بشغف كبير، لطالما تمنيت فتاة مثلها بكامل طبيعتها وعفويتها وروحها المرحة

وما أن وصلت قهوتها بدأت تغمس قطع البسكوت في الفنجان ثم ارتشفت منه قليلاً

وإذ الرغوة تطبع على طرف شفاءها بدأت تلعقها بلسانها وبقي بعض منه

نظرت إلي وقالت وهي تشير بأصبعها على وجهها: هل بقي شيء؟

ضحكت ثم أخرجت منديلاً ومسحته بيدي بكل هدوء

نظرت إلي وقالت وهي تشير بأصبعها على وجهها: هل بقي شيء؟

ضحكت ثم أخرجت منديلاً ومسحته بيدي بكل هدوء وأنا أنظر لعينيها الجميلة

ثم بدأت تجمع شتات نفسها وكأن أصابها ارتباك مني

ثم بدأت تتكلم بجدية أكثر

_ اسام أنا مجبرة على هذا الزواج هناك شيء حصل جعل والدي يزوجني رغماً عني

_ واضعاً يداي على الطاولة، لأن والدك مجبراً على ذلك، قام والدك باختلاس بعض أموال الشركة وتم تحويلها إلى حسابه، فحين علم والدي بذاك كاد أن يسجنه، حين بدأ والدك بالتوسل إليه، عفى عنه بشرط أن يقدم ابنته هدية على طبق من ذهب وأن يعمل لديه لعدة سنوات تحت سلطة والدي دون أن يأخذ قرش واحد

فوافق والدك على ذلك دون أي تردد

نظرت إلى إيلين والدموع في عينيها ثم قالت بعد صمت طويل من أثر الصدمة وما تسمعه، هل والدي فاسد؟ هل قام بسرقة الأموال؟

لا أصدق يا اسام، فوقفت بسرعة وما أن همت بالرحيل التفتت إلي وقالت: اثبت لي صدق كلامك.

_ حسنا امهليني عدة أيام وسأثبت لك صدق كلامي.

وما أن غادرت إيلين، حتى أخذت هاتفي واتصلت على صديقي الذي يعمل في الشركة فطلبت منه أن نلتقي بعد نهاية عمله، فوافق على الفور

وفي تمام ٢:٣٠ بعد الظهر جاء صديقي بنفس المكان الذي التقيت به إيلين، فجأ مسرعا وكعادته وفور جلوسه وبعد أن ألقى السلام علي، نادى النادل فبدأ يطلب مجموعة من الطعام وما إن انتهى ألتفت إلي

قائلاً: إني اتضور جوعاً فمنذ الصباح لم أكل شيئاً

_ لا تفكر إلا في بطنك

_ وماذا يعنيك هذا أنا الذي أتعب في الشركة وبين صعود ونزول وخذ أوراق واجلب تلك

_ حسنا كما تشاء

وما أن جاء الطعام بدأ يأكل كالذي لم يأكل لأيام، وما إن انتهى حتى قال وهو يضع يده على بطنه، الحمد لله، ثم طلب شاي بالنعناع

_ الآن تستطيع أن تتحدث ما هو الموضوع الذي تريدني فيه؟

_ أنا أضع يدي على الطاولة، أريد ملفات والد إيلين؟

فنظر إلي بدهشة وقال: أنت تعلم أن هذا مستحيل

_ ليس مستحيل عليك فتلك الملفات لا أحد يستطيع أن يصل إليها غيرك

فرجع بظهره إلى الخلف وبدأ يحك رأسه ثم قال: ليس قبل أن أعرف ما الذي تريده من تلك الملفات

وعندما حدثته بما جرى، وافق على الفور بمساعدتي، فطلب مني عدة أيام حتى يستطيع جلبها.

مرت الأيام بسرعة وكأن القدر يريد إنهاء هذا الأمر وفي يوم اتصل صديقي وطلب مني أن نلتقي في نفس المكان، وعندما ذهبت جلست وأنا انتظره بفارق الصبر

وبعد نصف ساعة جاء ويحمل بيده تلك الملفات، وقبل أن يجلس

قال متذمرا: لما لم تتطلب لي بعض الطعام يا لك من صديق ناكر المعروف

_ ألا تشبع أنت؟ أعطني الأوراق واذهب واطلب ما شئت

أعطاني الأوراق ثم ذهب إلى المطعم ليرى ما لديهم، وبدأت أنا أقلب تلك الأوراق التي تنهي حياة والد إيلين إلى السجن

ومن ثم اتصلت على إيلين وإذ بها في البيت، فقلت لها أني ذاهب إلى مجمع الفنون التشكيلية، سأنتظرك هناك

وما إن وصلت وقفت أمام المجمع انتظرها، حتى جاءت فتوجهت إلي، كانت تلتفت يميناً ويساراً ربما خوفاً أن يراها أحد وهي تعلم أنه لا يمكن أن يرانا أحد هنا

فطلبت مني أن نلتقي في المكان ذاته، وعندما التقينا ثم جلسنا اعطيتها الأوراق وإذ بها تأخذها بخطف وبدأت تتصفح تلك الأوراق وتقرأها وإذ بالدموع تنهمر من عينيها، بدأت أتأملها وهي في تلك الحالة تارة ترفع شعرها من وجهها وتارة تمسح عينيها فأعطيتها منديلاً فبدأت بمسح دموعها ثم قالت لي: أكان والدي فاسد؟ أكان يسرق أموال الشركة؟

فقلت: تنهدت بضيق نعم يا إيلين شركتنا لها دخل عالي ولن تكشف الحسابات الا إذا تم تدقيقها ثم قالت لي بشيء من البرود: خذ الأوراق وسلمها إلى الشرطة ثم غادرت المكان وهي بحال من الصدمة وشعورها بالخجل مني

وفي يوم أخر أتت الشرطة إلى منزل والد إيلين فقاموا باعتقاله وأخذه إلى السجن، وأبي الذي غضب مني غضباً شديداً جرَّاء ما فعلت

هممت بترك المدينة إلى مدينة أخرى علي أجد فيها راحتي واستقرار نفسي دون قيود أو إجبار، وما إن أنهيت بعض الأوراق للسفر وفي ساعة تحليق الطائرة كتبت إلى إيلين رسالة وداع قلت فيها: أنا الآن في المطار اتمنى لك حياة سعيدة من ثم أغلقت هاتفي وفي قلبي شيء غريب كان ينبض من شدته كأنه يريد أن يخرج من قفصه

شعور غريب انتابني وشيء آخر يأمرني للعودة، إنها إيلين التي تجبرني على العودة ولكني لا أستطيع إجبارها بحبي كما جبرها والدها علي

وما أن بدأ ينادون على المسافرين، أرجو من المسافرين التوجه إلى الطائرة حالا، وهي تكرر هذا الكلام وكل مرة ينتابني الحزن، كم سأشتاق لك يا إيلين

وكم تمنيت أن أشعر انها تبادلني الشعور ذاته، ولكنها ربما سعيدة الان قد تخلصت مني ومن اجبارها علي، كل ما اتمناه أن تشاء الأقدار بأن نلتقي مجدداً،

كم تمنيت أن أشعر انها تبادلني الشعور ذاته، ولكنها ربما سعيدة الآن وقد تخلصت مني ومن اجبارها الزواج مني، كل ما اتمناه أن تشاء الأقدار بأن نلتقي مجدداً،

وما إن وقفت أمام بوابة المغادرة حتى أصابني ضيق شديد وكأن هناك من يخنقني فبدأت قدامي ترجع للخلف رويداً رويداً

حتى أدرت ظهري متوجهاً إلى بوابة المطار للخروج منه

ركبت التاكسي وطلبت منه أن يذهب بي إلى المجمع الفني،

وما إن وصلت نزلت مسرعاً إلى قسم فنون الرسم، شعور اللهفة في لقاء إيلين ينتابني وما وقفت وراءها أجدها ترسم شيء من ملامحي وهي تأخذ تلك التنهيدة بين حين وحين

اقتربت منها ووضعت يدي على كتفها وأنا أنادي باسمها

ألتفت إليّ بذهول وهي تحدق بي وبعد لحظات وما بدأت بالكلام وضعت يدي على فمها

ثم قلت لها: قلبي لم يستطع المغادرة أظن أنه وقع في حبك يا إيلين

ثم أجابتني قائلة، وأنا ايضا لم يعد قلبي ملك لي

وبعد شهر من محاكمة والد إيلين

تزوجنا ثم غادرنا المدينة إلى مدينة أخرى أكثر هدوء واستقرار واحلام على وشك التحقق

أغلقت إيلين الكتاب بعد مرور العديد من الساعات وهي تجلس على الأرض لكنها غرقت في بحر من الذكريات الغامضة وكأنها بدأت تستعيد ذاكرتها رويداً

لذلك قررت الذهاب إلى الطبيب على الرغم من فوات موعدها.

كانت تعلم بأنها حكاية تتشابه كثيراً مع ما عايشته إلا أنها حمدت الله على وجود ترف وحنين كانتا مُحبّتان لها كما هي تفعل دوماً.

توجّهت إلى الموعد المحدد دون الاتصال بأي واحدة منهن، كانت تود رؤية الحقيقة والعودة إلى ثباتها.

عندما دخلت إلى العنوان المكتوب على الورقة التي أعطته لها الممرضة قبل خروجها من المشفى، اندهشت لكونها لم تكن لتعرف بأن الطبيب النفسي شخص طبيعي مثل الجميع، رُبما اعتقدت كونه إنسان يعيش داخل عالم من الفوضى والكثير من اللون الأسود والظلام، لكن عيادته كانت مخالفة تماماً، فقد طُليت في اللون الزهري الفاتح، وفي وسط الغرفة خلف المكتب تماماً نافذة فُتحت إلى حديقة مزدحمة بالأطفال وضحكاتهم العفوية التي ملأت في الكون الحياة.

جلست على المقعد مُنتظرة رجل عجوز في العقد الخامس من عمره ذو شعر أشيب وربما يضع نظارات طبية سميكة ويحمل بيده عصا - هاري بوتر- ضحكت في سرِّها وهي تذهب داخل مخيلتها فرُسمت على وجهها ابتسامة عريضة، لم تكن اعتقاداتها تُخالف الواقع إلا أنه لم يكن يحمل تلك العصا!

بعد انتهاء الجلسة خرجت للجلوس في الحديقة التي رأيتها من خلال النافذة، كانت جميلة جداً ليست رائعة بزهورها أو حتى

التُحف الواقفة داخل أرجائها فوق العشب الرطب بشكل أنيق، بل بالأطفال الذين يركضون داخلها بمرح، جلست على أقرب مقعد إلى الباب الأمامي ما جعلني أشعر باليأس هو كلام الطبيب وبروده ، ومن الذي سيصدق بأنني فقيرة الذكريات بطفولة باردة روتينية، لم يكن لدي أيُّ أصدقاء لكونني تعلمت اللغة الإنجليزية والفرنسية بصعوبة كبيرة، وقد كُنت محط تنمُّر الجميع بسبب جنسيتي العربية أو بالأحرى السورية، وحيدان أنا وأنت يا سيدة وحدة، على الأقل أنت ظِلّي ومرآتي و مِظلَّتي، نهضت من على المقعد وأكملت الطريق لأرى تمثال امرأة تحمل طفل صغير، خُيِّل إلي لحظات عشتها إلى جانبه وكأنني وضعت هذا الطفل بين يديها ليأخذ من حنانها وحُبِّها، اقتربت منهما أكثر لأجد شاب مُنحني القامة يجلس أمامها، فوضعت يدي على كتفه.

ما إن التفت إليّ حتى نهض مسرعاً وعانقني بشدّة، في تلك اللحظة شعرت بأن الجزء الأكبر الذي فقدته قد عاد إلي، انهمرت دموعي لتمتزج بدموع عينيه، همس لي في أذني اشتقت إليك، أنا حقاً أُحبك جداً، لماذا يا إيلين لقد كابدنا الكثير، ومن أبسط حقوقنا هو الابتعاد والاستمرار بلا حقد أو حتى غُلّ!

ابتعد عنِّي قليلاً شعرت بنفسي تعود إليّ ذاكرتي وما فقدته في تلك الليلة قبل أن يُغمى عليّ إثر ضربة على رأسي، ولرُبما لم تقم بخيانتي، لكنَّها حاولت حمايتي بتخبئة جرحي الأزلي من عائلتي التي يُفترض بأن تكون حصني العالي في معركتي مع الحياة لكنها كانت العكس.

جلسنا سويَّاً على العشب الغضِّ، لم نتحدث لعدة ساعات متواصلة لكن كُنَّا نجلس إلى جانب بعضنا البعض، متعانقين.

قررت البوح بما في داخلي، ربما أجد بعض الراحة في الحديث إليه نظرت إلى السماء كانت زرقاء جميلة بغيومها البيضاء، وأشعة

الشمس الدافئة، للأرواح هدير نشعر به لكن لا قدرة لنا على احتوائه، كأن تشتاق إلى من أحببت وهو يسكن تلك السماء البعيدة، وتنظر إليها وأنت تجزم بأنّه يقف على تلك الغيمة البيضاء مرسلاً إليك دعواته لتبقى سعيداً تعيش بسلام، رُبما قمت برمي والدي في السجن لكنني رأيت الوقوف أمام الحق والخير هو الخيار الأصعب، أمسك كلتا يدي بيده أما عينيه التي اغرورقتا بالدموع ليقول لي بصوت أشبه بالعكس

-لقد كنتِ قوية يا إيلين فأنت بُحتِ بالحقيقة كاملة وهو أبيك الذي قام برعايتك منذ نعومة أظافرك، لم يقم باختيار مصيرك أو مستقبلك، ولم يرغمك على شيء عدا عن زواجك مني طبعاً.

-لا لم أكن قوية كفاية، لم أكن قادرة على مواجهته، معرفة السبب بقبوله صفقة مشبوهة وهو لا يحتاج إلى المال!

- نعم كان أبي، أو بالأحرى طيلة هذه الأعوام لم يشعرني سوى بكونه الوصي أمامي الذي ينفق بزهد لا أكثر!

كان أسام ينظر إليها بقلق وريبة، وكأنها اشتاقت لرؤيته، أو حتى عناقه لكنها لن تكون قادرة على فعلها بعد الآن.

نهض أسام من فوره ومد يده إليها لتمسك بها وتذهب معه لكن دون معرفتها ما السبب سوى أنها تبعته بخطوات مترددة حتى وصلا إلى المقبرة التي وضعت للعرب المسلمين، حرص أسام على دخولها قبله بخطوة واحدة وهو يمسك بها بمرفقيه، لم يكن المكان بعيد جداً حتى وصلت إلى شاهدة كُتِبَ عليها اسم لطالما رافق اسمها مراراً وتمنَّت لو أنَّه يبتعد عنها، شعرت بدوار أصاب رأسها وبقلبها النابض بين أضلعها، هل للموت شفاء قالتها بشفتين مرتجفتين، لا بالتأكيد هو الأمر المحتوم، هي روحه التي طافت حولي وعانقتني، لم أشعر به من قبل وليته فعلها.

عادت إلى منزلهما لتجلس على الشرفة وتبدأ بسرد حكايتها لكن بذاكرة قوية وإن كان قلبها يعتصر من الألم

استيقظت بتكاسل شديد وكأن ليلة البارحة قد مرت ولم تعبر، أغلقت عيني من جديد رأيت ملامح والدي الواجمة ووالدتي بجانبه تبكي أما شقيقاتي فقد كانتا مثلي تماما تشاهدان ما يحصل حولهما باندهاش وصمت مطبق، فلقد أخذو والدي بعد اكتشاف الأمن كونه موظف فاسد بيدين مقيدتين ولم نعد نعلم ما سيحصل أو ما هو مصير عائلتنا شعرت بدمعة هربت من عيني عنوة كنت قد حبست دموعي إلى الآن ولم أود لأحد رؤيتي بضعف نهضت بسرعة خارجة إلى الشرفة وقفت أتأمل هذا النهر الجميل يدعى أوتوا وهو من أجمل الأنهار التي تقبع في كندا وفي عاصمتها أوتاوا كان الجو صيفي والشمس مشرقة التفت إلى الطاولة لأجد الدفتر الذي اقتنيته للكتابة باللغة العربية أذكر أنني بحثت كثيرا في كانتا حتى وجدته وجلبت معه محبرة وقلم تخطيط كنت قد قررت كتابة قصة حياتي لتكون عبرة لكل الفتياة من عمري أو بالأحرى سأكتب حتى أفرغ الثقل الذي بداخلي جلست على الكرسي المقابل للطاولة وبدأت أدون أول كلماتي أذكر أنني عشت حياتي كفتاة مطيعة أولا لأهلها منساقة لمجتمع أعمى لا يرى الفتاة إلا أنثى ضعيفة ولايعيب الرجل في شيء عدا جيبه، بالرغم من أنني عشتُ في كندا لأعوام كثيرة وفي عاصمتها أوتاوا وبالرغم من منشأي الغربي إلا أن عادات أجدادنا ولدت عند والدي مع ولادتنا أنا وشقيقاتي هل حقا كما يقال أن البنت ليست مثل الابن وبماذا نحن نختلف عنهم يا ترى وما هذه التعقيدات، كان قد وضع في زاوية الشرفة مرسم صغير عدت معه إلى ذكريات الطفولة بالرغم من كل محاولاتي لعدم الرجوع الى الماضي إلا أنني رأيت طفلة صغيرة ذو شعر أحمر تجلس على ركبتيها وتبكي على ألوانها التي كسرت ولوحتها التي

مزقت تركت نفسي لدوامة الماضي أذكر تلك الأيام وكأنها البارحة بدأت زوجة والدي منى تعليمي أنا و شقيقتي النظام الكلاسيكي والراقي كما وصفته لنا منذ الصغر ،أما في العطل و الصيف تعلمت عزف البيانو بالرغم من حبي للرسم إلا أنها اعتبرته فوضوي وغير لائق للفتاة وتوالت الأحداث كي أكون فتاة مثالية يجب عليك فعل هذا وعدم فعل ذاك فذات مرة وأنا في عمر السابعة كنت جالسة بغرفتي أرسم عندما دخلت زوجة والدي لتجدني منسجمة بعالم خاص بي تقدمت إلي بهدوء محكم وصفعتني على وجهي وكسرت لي أدوات الرسم ونهتني عن المعاودة لهذا الأمر وفي اليوم التالي سألتني مدرسة الفن عن لوحتي فأخبرتها ما فعلته أمي لم أكن أعلم ما سيحصل بعدها إلا أنني شاهدت مجموعة من الأشخاص قد عادو معي للمنزل وجلسوا مع والدتي بغرفة الضيوف أما أنا أعطتني المدرسة عدة رسم جديدة وذهبت لغرفتي لأعيد رسم لوحتي بعد ساعة أتت إلي وقالت لي إن عدت لأخبار أحد عما يحصل في المنزل سأعطيك لأول مدرسة داخلية ولن يعود لك عائلة تنتمي إليها ، لم أكن أعلم بمغادرة والدي كندا ليذهب ويستقر بالكويت ، لكنه هذه المرة قرر عدم أخذي معه ، عدا أنه وعدني بأن يأتي بي إليه في العطل الصيفية، فقد وضعت السيدة منى تعليمات صارمة ما يحصل في الداخل ليس له علاقة بالعالم الخارجي فكبرنا وتعلمنا أن العالم الخارجي هو المكان الذي يحمينا من الذي يحصل في الداخل من قسوة ،لم أشعر كم من الوقت مضى وأنا على هذا الحال ولكنني سأبدأ الكتابة من اليوم الذي بدأ فيه الكابوس قال كاتب ذات مرة في حياة كل إنسان لحظة أو يوم لا تعود حياته بعدها كما كانت ،أذكر أنه كان بداية نيسان والجو ربيعيا نمت بعد احتفال لوقت طويل أنا وشقيقاتي بعد انتهاء الامتحانات وظهور النتائج لدينا عطلة طويلة وسأذهب للمجمع الفني وأمارس الرسم ،استيقظت بعد نوم عميق على صوت زوجة والدي تنادي من

بعيد هيا يا إيلين أما زلتي نائمة و لا تنسي أن ترتدي الفستان الذي أخترته لك وأستعدي بعد قليل سيأتي صديق والدك ذهبت للحمام واغتسلت ومن ثم بدأت بتحضير نفسي هذه أول مرة تجري أمي هذه التحضيرات الرسمية ولمدة طويلة وكأن هذا الشخص مهم جدا أو أن هناك صفقة تجارية جديدة وذات أهمية فلقد كان والدي رئيس قسم المحاسبة بشركة صديقه الذي لم نره سوى مرة واحدة عندما كنا صغار جهزت نفسي وخرجت إلى غرفة الجلوس وجدت شقيقتي قد حضرتا نفسيهما وأمي تعطي رئيسة الخدم التعليمات ولكنني لا أعلم لماذا انتابتني موجة ضيق وكأن القادم ليس فيه خير بعد عدة دقائق جمعتنا زوجة والدي السيدة منى بغرفتها وكأنه لا يجب على أحد سماعها قالت لنا بالتحديد صديق والدي يود التعرف علينا نحن الثلاثة وهي تشعر بأنه يود إيجاد عروس مناسبة لابنه ويتوجب علينا أن نكون مستعدات حتى يقع الاختيار على إحدانا نظرت من حولي لأجد كل واحدة منهن قد سافرت إلى حلمها فشقيقتي ترف بدأت الدموع تتساقط من عينيها بالفعل وغادرت الغرفة بحال من الغضب أما أختي حنين انتفضت من محلها ومن ثم قالت لها بأنها لا تكترث لعاداتنا وتقاليدنا البالية وهي تود أن تعيش حياتها كما يحلو لها ولن تتزوج من شاب لأتعلم عنه شيء

نظرت له كان يبتسم بشكل مبالغ، منذ الصغر وأنا تعلمت معنى هذه الابتسامة لقد كان يود أخذ موافقتي بالإجبار فهو لم يقصد سؤالي بل كان يريد طواعيتي وتنفيذي لأوامره ولكن هذا القرار مصيري، قلت له بشكل مربك سأفكر بالقرار و....

لم أستطيع إكمال جملتي قام أبي من موضعه وشد شعري بقوة وقال لي أنا لم أترك لك القرار بل يجب عليك تنفيذ ما أقوله لك، تركني لأغادر وأعود إلى غرفتي وقلبي بين يدي يقبع دخلت إليها ولبست مئزري ومن ثم جلست أمام مرسمي استجمع أفكاري هل

أنا في كابوس بعد ساعة من السكون دخلت أمي الغرفة كانت ماتزال بفستانها وعندما نظرت لوجهها كانت عيناها قد فاضت بالدموع وجفت كنهر غزير جف على حين غرة كنت أود أن أقول لها هل أنت بخير صفعتني على وجهي بلا أي مقدمات صفعة دوى لها المكان واستقر جرح بقلبي وكأن والدي اتفقا علي وكأنني طفلة صغيرة ،نهضت من مكاني والدموع تنهمر من عيني ثم قلت لها لماذا أنا لست طفلة صغيرة أنا الآن في العقد الثالث والعشرين ويحق لي أخذ قراري بنفسي

نظرت بعيني ثم قالت لي بنبرة يملأها التهديد والغضب ولكن ليس الوقوف بوجه قرارات والدك يا إيلين سأدع لك القرار حتى نهاية الأسبوع أما أن تختاري أهلك وأما أن تختاري نفسك

غادرت الغرفة وصفعت الباب وراءها أما أنا فاستلقيت على السرير محاولة إجبار نفسي على النوم علني أستيقظ وتكون مجرد دعابة من عائلتي لا أكثر، لقد اختارت زوجة والدي العزيزة العودة إلى كندا لإتمام صفقتها الرابحة والكبرى!

لا أعلم كم من الوقت مضى قبل أن تغمض عيني ولكن ما أعرفه تماما أن شعاع الشمس الحاد قد أيقظني منذ الصباح الباكر نظرت للأرجاء لأجد أن كل شيء مازال بشكله المبعثر والفوضوي نهضت ورتبت الأغراض بتكاسل فهناك قاعدة وضعتها أمي حتى لو كان لدينا خدم يتوجب على كل شخص ترتيب أغراضه بنفسه بعدها وضبت نفسي وخرجت لممارسة الرياضة في الحديقة المجاورة يجب على التفكير بحذر فمثل هذه الأمور لا يجب أخذ القرار بها بمجرد انفعال، أذكر أن الأسبوع قد مر ببطء شديد وأنا أتألم بين قلبي وعقلي وكلما حاولت التكلم مع أحد من أفراد عائلتي تقول لي أمي حاولي ترتيب أفكارك حتى نهاية الأسبوع وما إن انتهت المدة حتى ذهبت إلى غرفة الجلوس كانوا جميعا يشاهدون برنامج

اجتماعي معا جلست مقابل زوجة والدي التي ادعت أنها لم تراني ولكنني أعلم يقينا أنها تسمعني قلت لها بصوت منخفض حسنا كما تشائي لك هذا سأوافق على خطبتي منه فقط حتى نتعرف على بعضنا بشكل رسمي ولكن لا أحد سيجبرني على الزواج منه هل سمعتي

عندما سمعت كلماتي نظرت إلي وقد غمرت البسمة وجهها ثم قالت لي هذا ما كنت أود قوله لك أحسنت الاختيار والآن سوف يتحدث والدك مع الأب ويخبره بموافقتك بينما أبي الذي كان ينتظر الموافقة ذهب على عجل ليخبرهم لتحدي موعد ليوم حفلة الخطوبة أما أنا فجلست مع شقيقتي نتحدث عن الجامعة وعن الامتحانات الأخيرة التي ستأتي على الأبواب فهذه هي سنة التخرج وبعدها الدراسات العليا لم يكن تخصصي بالصعب فقد كنت أدرس الفنون بالرغم من عدم رضا أهلي عنه إلا أنني أجد نفسي به، بعد ساعة كاملة عاد أبي والفرحة تغمره قال لنا تحديداً بأنه أتفق على موعد للحفل بعد أسبوع حتى يستطيع التجهيز للحفل وما شابه قالت لي أمي بأننا يجب علينا الاستراحة والاستيقاظ باكرا، رغم عدم سعادتي ولكن لا أحد يهتم لما يحصل داخلي نظرت لشقيقتي لأجدهما بحال من لفرح لا أعلم هل هما فرحتين لمرور ذلك الكابوس من أمامهما دون أذى' ولماذا أنا من يجب علي التحمل والصمود ،مر أسبوع التحضيرات شعرت به كأن امرأة أنضج مني رمادية اللون قد وضعت بدلا عني وأنا أشاهد نفسي من بعيد لا أعلم من أنا وما هذا الحال الذي وصلت إليه ،إلى الآن أذكر تاريخ الاحتفال كان يوم الأحد الموافق ل٢٠١٩/٤/٢١ تعمد أبي وضعه يوم ميلادي وكأنه أختار يوم موتي حينما ولدت حتى لا أحد يستطيع نسيانه وبما فيهم أنا استيقظت منذ الصباح الباكر كان المنزل بمنتهى الهدوء يجب البدء التحضيرات حتى المساء وماهي لحظات حتى قرع باب الخارجي أتت رئيسة الخدم

وقالت لأمي بأن الفساتين قد وصلت وبأن من سترتب لنا الشعر والزينة قد أتت مع العاملين معها قالت لها أمي ضعي كل فستان بغرفة صاحبته ولترسل فتاة لغرفة كل واحدة منا حتى نستطيع الانتهاء بوقت واحد وقبل بدء الحفلة وما إن ذهبت كل واحدة إلى غرفتها حتى استغرقت ب التحضيرات أما أبي فقد كان منشغل بالترتيب بين الضيافة وتجهيز نفسه مر الوقت بسرعة وكأن الوقت يسابق نفسه، دخلت لتجدني قد تحضرت قالت لي هل أنت جاهزة سيبدأ الضيوف بالقدوم وعلينا الذهاب إلى القصر الذي يقام به الاحتفال لم يكن بعيد عن منزلنا اخترنا الذهاب معا بسيارة والدي كنت قد ارتديت فستان لعند الركبة باللون الزهري الغامق و تركت شعري منسدل على كتفي وضعت تاج من الياسمين صنعته لي أحد صديقاتي لهذا اليوم أجبتها بأنني على أتم الاستعداد فخرجنا سويا للذهاب للمكان الذي جعلنا الحفلة تقام فيه كان الجميع قد حضر وهو بكامل اناقته نظرت حولي وجدت الكل سعيد إلاي أنا

بعد عدة دقائق تقدمت إلي شقيقتي حنين وهمست لي يقول لك والدك أنه يتوجب عليك الوقوف إلى جانب اسام وإلا أثرت أنتباه الجميع ومن ثم ابتسمت لي ووجهتني بيديها إلى حيث كان يقف تقدمت بخطوات ثابتة إلى حيث كان يقف عندما وصلت إلى أمامه مدت يدي ل تصافح يده كان شديد الهدوء وكأنه منساق لما يحصل حوله مثلي تماما تبادلنا أطراف الحديث وأتى الكثير من الناس من حولنا ليباركوا لنا خطوبتنا بعد مرور الوقت بدأ الضيوف بالذهاب رويدا حتى لم يتبقى سوى عائلتي وعائلته أمسك يدي برفق وقبلها من ثم ذهب

أما أنا فعدت إلى حيث كانت عائلتي تقف للذهاب إلى المنزل حاولت زوجة أبي و شقيقتي أن أقول لهم ما حصل وما الذي قلته ل اسام ولكنني التزمت بالصمت ولم أقل أية كلمة كنت متعبة ولا أريد الجدال مع أي شخص صعدت إلى شقتنا ودخلت على الفور

إلى غرفتي فلقد عزمت القرار على اللقاء ب اسام لأنني أود قول له كل شيء حتى لو كلفني هذا حزن عائلتي ففي الآونة الأخيرة أدركت أن العادات والتقاليد البالية أهم عند والدي مني ومن حياتي ولكن علي التفكير قبل أن مقابلته كيف يجب علي شرح هذا له وبشكل لا يستطيع أحد معرفته بدلت ملابسي واستلقيت على السرير غدا لدي الكثير من الأعمال يجب علي إنجازها وأيضا أريد الاستيقاظ من الكابوس قبل بدء الامتحانات لا أريد الرسوب، استيقظت في اليوم التالي وقد قررت عدم لفت انتباه أحد لما سأفعله نهضت و حضرت نفسي للخروج ومن ثم تناولت الفطور وذهبت إلى حيث رأيته ذات مرة أمام مجمع النحاتين بحثت طويلا قبل أن أجده كان يلبس ثياب لا تناسب وضعه الاجتماعي و بحال من الفوضوية منهك بين الصلصال و كأنه كان ينحت جسما لإنسان ووضع عليه حجر كبير أعلى كتفه لم أقترب منه بل اكتفيت بمشاهدته من بعيد وهو يعمل مر من أمامي شاب فسألته إذا كان يعرفه قال لي بأنه جل ما يعرفه عنه أن اسمه اسام وهو نحات وقال لي بشكل مبهم أنصحك بأن لا تحاولي السؤال عنه فهو شاب والده غني وذو مكانة مرموقة بالماضي تشاجر مع شاب من أصدقائنا وطعنه بسكين فأخرجه والده من الموقف دون أي خسائر لهم طبعا أما الشاب فقد بقي بالمشفى ملقى لعدة أشهر بعد سماعي لهذه القصة شكرت الشاب وذهبت للمرسم وقررت السؤال عنه قبل أن ألتقي به ولكن لعدة أيام لم أجد شيء جديد سوى قصته مع الشاب الذي طعنه ويقال بأنه لا يتكلم مع أي شخص ولا يقترب من أحد بعد عدة أيام قررت أن أقترب منه وأتحدث معه ارتديت مئزر الرسم وجلست لإنهاء لوحتي التي كان يجب علي تسليمها ومن ثم ذهبت لقسم النحاتين وجدته منهمك بين الصلصال وآلة النحت اقتربت منه بخطوات ثابتة ومددت يدي دون سابق إنذار.

- مرحبا كيف حالك؟

نظر إلي بتعجب ومن ثم قال لي أهلا الحمد الله من أنت هل تعرفنا من قبل؟!

كانت نظرات الدهشة والحيرة ظاهرة عليه فضحكت وكأنني لم أضحك من قبل فضحك بدوره معي وكأنها عدوى وقد انتقلت إليه وما إن نظرت للمرآة حتى عاودت التحديق به ومن ثم قلت له بمرح نسيت أنك لم تراني بهذا المظهر قبل الآن أنا خطيبتك أو بالأحرى الهدية التي قدمها والدي لك من أجل صفقة ما إيلين، على كل حال أظن بأن كلانا يهرب من قدره المجبر عليه إلى القدر الذي كان يتمنى أن يكون به هل بإمكاننا المكوث والتحدث أريد أن أقول لك رأي بما يحصل ولكن بمكان أكثر هدوء

نظر اسام حوله ومن ثم قال لي نعم وأنا أريد قول شيء لك ،أعرف مكان لن يجدنا به أحد ومن ثم تأمل ملابسي وقال لي بدلي ملابسك بينما أرتب كل شيء لنذهب قبل أن يتصل بك أحد من عائلتك، عدت إلى قسم الرسم وبدلت ملابسي وعندما خرجت من المجمع شاهدت شاب بملابس أنيقة وسيارة فارهة اقتربت منه بهدوء فقال لي هذا القدر الذي سجنت به هيا نذهب قبل أن يعرفنا أحد ومن ثم أنطلق بنا إلى مطعم أمام الحديقة التي أمارس بها الرياضة وهو أيضا يطل على النهر الذي كان يحمل كل همومي وذكرياتي بعد أن جلسنا وطلبت فنجان قهوة وصحن بسكويت إلى جانبه أما هو فقد أختار كأس من العصير حتى يذهب النادل

بعد عدة دقائق أتى النادل ومعه القهوة وقطع البسكويت مددت يدي وبدأت بتغميس قطعة البسكويت بالقهوة وأكلها بشكل عفوي هذه أول مرة أتصرف بها على طبيعتي أمام شخص ما دون قيود نظرت ل اسام كان يبتسم أمسك قطعة قماش ومسح لي ثغري ومن ثم قال لي أنني أسمعك

بعد تردد قلت له وأنا أنظر للطاولة أمامي وكأنني أهرب من عينيه أنا مجبرة على هذا الزواج وإلا سيتم طردي من المنزل و..

قاطعني قائلا توقعت هذا الأمر نظرت له باندهاش لأرى ملامح وجهه التي ملأها الحزن والخيبة، أكمل قائلا دون أن يترك لي المجال للتحدث أنا أعرف سبب إجبار والدك لك على الزواج مني

لم أصدق ما أسمع وكيف له معرفة السبب الذي جعل والدي يجبرني على زواجي منه قلت له بحيرة وتردد وما هو السبب يا ترى أخبرني به

فقال لي قبل شهر واحد أمسك أبي والدك وقد زور شيكات من الشركة وأرسلها لحسابه الشخصي وبعد اكتشافه قرر أبي أولا معاقبته ولكنه بعد الحادثة التي حدثت معي وطعني للشاب في المجمع قرر أبي استغلاله وتزويجي منك

وبهذا عقد صفقة كبيرة اتسعت عيناي أنا لا أصدق ما سمعت ربما كان أبي ظالم ولكنه لن يكون موظف فاسد

نهضت من على الكرسي وأدرت ظهري وهممت بالمغادرة ولكن كان لدي فضول لمعرفة إذا كان ما يقوله صحيح التفت له مرة أخرى وقلت له بعصبية وهل لديك دليل على ما تقول

فقال لي أمهليني أسبوع واحد وأعدك أنك س تشاهدي دليل بين يديك

قلت له بتحد حسناً وأنا أنتظر بفارغ الصبر وإن لم تكشف ما لديك من دلائل سأعتبرك مجرد شاب متهور

نهضت وغادرت المنزل وكلي دهشة مما سمعته أنا الآن يجب عليَّ الانتظار وتسليم قدري لشاب لا أعرفه

مر الأسبوع ببطء شديد وأنا أنظر لحياتي من بعيد هل كل شيء تربيت عليه مبني على الكذب أشاهد عائلتي وكأنني في مسرح كبير ولكن على أرض الواقع وأنا أتمنى أن تكون هذه مجرد خدعة من اسام لتشويه صورة أبي ليس أكثر وفي اليوم الذي أتى به موعد اللقاء استيقظت منذ الصباح الباكر و ارتديت فستان طويل وذهبت للمجمع وجدت اسام ينتظرني في الخارج أمام سيارته وبيده يحمل أوراق فقال لي سنتكلم عندما نصل ذهبنا إلى نفس المكان السابق وجلسنا بعد عدة دقائق قدم لي الأوراق فأخذتهم بسرعة دون قول كلمة وبدأت تصفح واحدة تلو الأخرى بتمعن ودقة فقد أصابتني الدهشة عندما علمت أن أبي حقا موظف فاسد لم أعد أعلم ماذا أقول توقف عندي الزمان وجفلت مكاني قلت له بصوت مرتجف هل كان يسرق الأموال منذ زمن طويل

تنهد بضيق ثم قال لي نعم منذ زمن بعيد شركتنا لها دخل عالي ولن تكشف الحسابات إذا ما تم تدقيقها

أشعر الآن بالخجل من اسام لقد أضحى والدي سارق قلت له ببرود خذ الأوراق وأذهب بها إلى الأمن ومن ثم نهضت وعدت للمنزل وفي صباح اليوم التالي استيقظت على أصوات جلبة وضجة عندما خرجت من الغرفة وجدت الأمن في كل مكان فقد حجز على جميع أموال والدي شاهدت أبي بيدين مكبلتين وأمي بجانبه تبكي أما شقيقتي كانتا بقمة الاندهاش لما يحصل حولهما بعد انهائي للكتابة وضعت القلم ومسحت دموعي التي خرجت رغما عني ونهضت لتوديع المنزل الذي يحمل ذكرياتي ومساعدة أمي و شقيقاتي بتوضيب اغراضنا للحظة تذكرت اسام فرن هاتفي على الطاولة بجانبي وجدت رسالة من اسام يقول لي فيها أنا الآن في المطار وقد عزمت القرار بالسفر أتمنى لك حياة سعيدة اطفأت هاتفي و ذهبت إلى حيث كانت تقف ماريا وجولي للبدء بحياة جديدة ومستقبل مجهول

تذكرت اسام فرن هاتفي على الطاولة بجانبي وجدت رسالة من اسام يقول لي فيها أنا الآن في المطار وقد عزمت القرار بالسفر أتمنى لك حياة سعيدة اطفأت هاتفي و ذهبت إلى حيث كانت تقف ترف وحنين للبدء بحياة جديدة ومستقبل مجهول، ولكن شيء ما داخلي يجعلني انجذب لرؤية هاتفي لماذا أكرر قراءة رسالة اسام وهل يا ترى أنا حزينة لرحيله أطلقت تنهيدة طويلة ومن ثم قررت الذهاب إلى المجمع الفني ولبست مئزر الرسم ومن ثم بدأت الرسم شيئا فشيئا ولكن الذي اذهلني قدرتي على رسم ملامح اسام بدقة رغم أنني لم ألتقي به بكثرة بعد عدة ساعات شعرت بيد حطت على كتفي نظرت خلفي رأيته واقف يبتسم لي فتحت ثغري من الصدمة قلت له بارتباك ولكن ألم تغادر المدينة كيف وضع يده على فاهي ومن ثم قال لي قلبي هو الذي لم يستطيع المغادرة وهو أيضا من جبرني على الرجوع إليك أظن انه قد وقع في حبك ماذا عنك ؟

أجبته بعفوية وأظن أن قلبي لم يعد ملك لي...

بعد شهر من محاكمة والدي تزوجنا أنا واسام ولكن كما أردنا أن يكون بشكل عفوي مع أصدقائنا وكأن القدر قرر جمع قلبينا بشكل أو بآخر هو خلق لي وأنا خلقت له

قامت بإكمال قصتها المنشودة التي عاهدت نفسها على إكمالها حتى النهاية، وفي النهاية كتبت، ليت الآباء والأمهات يعلموا بأنهم الأغلى والأجمل، لا المال أو الجاه أو حتى التعليم والغذاء، هي قيم سطحية أمام الحُبِّ، وحده قادر على صنع المعجزات بيد الله فهو المُحبّ الرؤف على الدوام.

وقف أيام خلفها وعانقها وهو يهمس لها: لقد كتبت قصة تشابه التي كتبتها في الكتاب الذي سأقوم بنشره.

-نعم لقد فعلتها، أنا الآن أعتقد بأنه حان الوقت لإنهاء مهزلة الزواج القائم على المصالح العائلية دون النظر إلى مستقبل عائلة تبنى من الجليد والوهم.

القصة الثانية:

هوس

كنت جالسة تحت شجرة الصنوبر محاولة الكتابة عنك عني وعن ماض قام بجمعي بك..

لكن الزهايمر قد غزى تلافيف عقلي..

ويبقى رجائي الأخير أن لا أصبح أنثى بدون تاريخ...

حنين

-ناقوس الأمل-

دق ناقوس الأمل، بدأ صوت الموسيقى يعلو، وقلبي يرتجف وهو يخفق بقوة على أنغام موسيقى الوجد، حتى أن كل من يمر بقربي يشعر به، وكيف لا وها قد أذن لنا رب السماء بعد طول صيام أن أنهل من مناهل قربه وأسكن يسار صدره حسناً لا شيء ينقصني فستان أبيض وبيدي باقة الورود النرجسية التي أحب أما يدي الثانية فكانت معلقة بيد حبيبي،

ذلك الشاب الأسمر.

كل شيء كان مثاليا حتى شعرت بأنني واحدة من أميرات العصور الوسطى.

أما الشاب الذي أحببته وعشت معه أروع

قصة حب أيقظني اليوم على كابوس مرعب ليس له نهاية.

استيقظت بعد يوم طويل لأجد نفسي في غرفة واسعة كل ما فيها أبيض اللون، بعد عدة دقائق دنت إلي

فتاة شابة تعلو على وجهها الابتسامة.

قالت لي بضع كلمات نزلت كالصاعقة على قلبي:

الحمد لله على السلامة لقد نجوت من الموت بأعجوبة.

موت ماذا؟ وعن ماذا تتحدث؟ بدأ رأسي يؤلمني إلى أقصى

درجة، أنا لا أعلم كيف وصلت إلى هنا صرخت مستنجدة

أين هو؟ هيا قولي لي....

عمن تتحدثين يا آنسة؟

والدي، هو من تبقى لي في هذه الحياة.

لا أعلم عن ماذا تتحدثين؟ سأنادي لتلك التي أنقذتك علها تعلم ما الذي يحدث!

ذهبت الممرضة بعد أن تركتني في حال من الذهول كل شيء معقد، وكأنني فقدت زمام الأمور، أشعر بنفسي أقود سيارة مسرعة بدون فرامل، لا أعلم متى بدأت وكيف

أتوقف؟ وقفت لبضعة لحظات أمام النافذة علني

استنشق هواء نقي، أو حتى يذهب عني صداع رأسي

الذي لم يفارقني منذ أن استيقظت، وعلى هذا الحال،

فجأة أحد ما نقر الباب مرتين ودخل.

وإذ هي المرأة التي أنقذتني وتدعى أم رامي بالمناسبة

هي امرأة في عقدها الثلاثين بالرغم من لطفها الزائد إلا

أنني لم آلفها أبداً، وكأنها جزء من ذكرياتي السيئة بالرغم

من هذا تظاهرت بالود لها لأن – لا أحد يستحق عدم الاحترام والحب ما دام إنسانا- على الأقل هذا ما كنت أظنه.

-هيا يا صغيرتي حان وقت الفطور وتناول الدواء.

أردفت قائلة: أتذكري ما الذي حدث معك؟

كنت جالسة على المنضدة المقابلة لها، لا أعلم لماذا

تكرر هذا السؤال منذ أن أتت إلى الغرفة؟

تراقبني وترمقني بتلك النظرات الغريبة

- قلت لها بشيء من الغضب لا لم أتذكر شيئا،

- لا أعلم كيف وصلت إلى هنا جل ما أذكره

البارحة كان فحص قبولي بالجامعة.

وشعرت بنفسي قد تجاوزت حدودي قليلا وارتفع

صوتي، أكملت بصوت يعتريه الندم، اعتذر منك ولكنني منزعجة لكوني لا أذكر شيء عن تفاصيل الحادث.

- لا عليك قال الطبيب أن هذا الأمر طبيعي.

وسيحضر معك جلسات معالجة تعينك على استرجاع ذاكرتك

ولكن!! على الأقل أخبريني اسمك؟

- حنين.

- حسنا يا حنين سأجلب أغراضك وتخرجي معي إلى منزلي إلى أن تستعيدي ذاكرتك.

- ولكن والدي يحتاجني وأريد الذهاب للمنزل.

- لا أود أن تذهبي لمنزلك وأنت متعبة سيحزن الأمر والدك.

وافقت وخرجت معها على مضض، بينما أستعيد ذاكرتي.

وصلنا إلى منزلها كان جميلاً جداً وكأنه من العصور الوسطى

زخرفته والحديقة... أشجار الصنوبر، وكل شيء داخله

حثتني أم رامي على متابعة المسير، دخلنا إلى غرفة واسعة

ومريحة.

- هيا سأدعك ترتاحين قليلا أعلم كم أنت متعبة.

- حسنا وشكرا لك عل كل شيء

خرجت من الغرفة بهدوء، أما أنا استلقيت على السرير

بعد أن استنشقت الهواء النقي الداخل من نافذة الغرفة.
جرس كنيسة يقرع وزغاريد تعلو شيئا فشيئا وأنا بفستان أبيض ومن ثم التفت فأراه يبتعد عني، آسف كريس
أنا أريد الذهاب بعدها يختفي.
استيقظت من جديد كان العرق يتصبب من جبيني جلست دقائق عدة علني أفهم شيئا، حينها سمعت صوت موسيقى لوهلة ظننت بأن الحلم تجسد إلى واقع

تتبعت ذلك الصوت وصلت إلى غرفة ضيوف أشبه بالملكية لم أر أحداً داخلها وحينما هممت بالخروج التقيت بأم رامي.
- هذه الموسيقى هي ذكرى زواجي هل أحببتها؟
- نعم، ولكن شعور غريب داخلي لم أصفه بعد!
وبينما كنت أجول ببصري في أرجاء الغرفة وقفت عيني على رمز صليب مزخرف بإتقان معلق على الجدار.
- تجدينه غريب إنه رمز ديانتنا.
- ديانتنا أنا لا أعلم عن ماذا تتحدثي ولكنني مسلمة.
- عندما وجدتك
كنت تحملين نفس الرمز بعقد في رقبتك كنت أقف مذهولةً لا أعلم عن أي عقد تتكلم وكيف لي أن أضع رمز الصليب وأنا مسلمة ومن أين أتيت به.

خرجت أم رامي مسرعة إلى الخارج ظننتها قد تحاشت إجابتي، بعد دقائق أتت ومعها العقد الذي ذكرته لي مدت يدها وأعطتني إياه وأنا بحركة

تلقائية أخذته وأنا في حالٍ من الشرود

- قال الطبيب بأن الحادثة جعلتك تفقدين مدة

زمنية معينة من حياتك ولربما كان هذا العقد جزء من هذه المدة استأذنتها وخرجت إلى الحديقة بيد أحمل العقد وبالثانية أحملُ ورقة وقلم جلست تحت شجرة الصنوبر محاولة كتابة شيء عنه أو عن الماضي الذي جمعني به تباً لذاكرتي اللعينة التي اقتحمها الزهايمر بأشد أوقات حاجة لها.

ما قصة هذا العقد؟ والزواج الذي أراه؟ وكيف علم باسمي على البطاقة لم يبق لأحد أن ناداني به؟ كل شيء فوضوي وغير مرتب بعد مرور بساعة سمعت شاب ينادي من خلفي بدأ قلبي ينبض بقوة لماذا تخيلته بأنه هو من رأيته في حلمي، كان ينادي على شخص ما ولربما كنت أنا هذا الشخص.

وقفت والتفت لأرى القادم، وإذ بشابِ أسمر في عقده الثلاثين أنيق ذو لحيةِ خشنة قليلاً وملامح جذابة اقترب مني حتى أصبحنا وجهاً لوجه

- من أنتَ؟ وماذا تريد؟

- أنا من يجب علي طرح هذا السؤال عليك، أنا ابن صاحب

هذا البيت ولكن من أنتِ؟

صمت داهمنا لدقائق قبل أن تأتي أم رامي من الداخل

وتنادي: براء حبيبي هل عدت يا بني؟

- نعم يا أمي ولكن... من هذه الفتاة وماذا تفعل هنا؟

اقتربت حتى أصبحت أمامنا مباشرة.

- حنين لقد أنقذتها هذا الصباح كانت قد أصيبت بحادث

ولكنها لا تذكر شيئاً من تفاصيل الحادث فأتيت بها

إلى أن تشفى وسنذهب.

- حسناً.

قال هذه الجملة وذهب إلى الداخل بهدوء دون أن يعرف

عن نفسه.

ذهبت إلى غرفتي وأجهز نفسي للبدء بجلسات العلاج أخذت حقيبتي، نزلت الدرج وأنا أنادي أم رامي قائلاً إنني سأخرج رأيته واقف عند نهاية الدرج وعينيه شاردتين ما إن وصلت إليه، قلت له بأنني ذاهبة إلى الطبيب، ولكنه أصر على إيصالي وانتظاري.

- قلت: لا أريد إزعاجك أستطيع العودة لوحدي

- لا سأنتظرك ريثما تخرجين أم أنك لا تودين أن نكون أصدقاء.

- حسناً كما تريد.

دخلت إلى غرفة المعاينة كانت أشبه بالحديقة لكثرة الورود وبها ضوء خافت جلست قبالة الطبيب لتبدأ الجلسة.

- كنت قد قلتِ يا حنين أنك لا تذكري تفاصيل الحادثة.

- نعم ورأسي مشوش قليلاً.

- حسناً يا حنين في أي سنة نحن الآن.

- طبعاً في الشهر الثامن من سنة 2011

- تنهد الطبيب ثم قال حنين هنالك فترة زمنية اختفت من حياتك نحن في الشهر ولكن من سنة 2018

- ما ... ماذا تقول؟!

شعرت بصفعة وجهت لي لا أدري ماذا أفعل

- اهدئي ستفعل الآتي، ستخبريننـي قصة حياتك بتفاصيلها

لنرى أين الثغرة. أتت حتى يمكنك البدء بقصة حب والديك تنهدت قليلاً، ثم قالت: سأبدأ لك القصة منذ لقاء والدي وصدفة القدر.

كانون الأول

تزامن القدر (رجوع إلى نقطة البداية)

واقف يزن ببذلته العسكرية وأخيراً إنه اليوم الأخير له بدورته في الواجب الوطني كان متفائلاً إلى أقصى درجة، لم يكن يمشي بل كان يطير جلس أمام المائدة وتناول فطوره مع والدته فريحين.

- حسناً يا والدتي العزيزة اليوم هو اليوم المنشود سأنهي خدمتي العسكرية ومن ثم سألتفت إلى المشروع الهندسي الذي عرض عليّ.

- ولكن يا يزن أنت وعدتني ستأتي معي لنحتفل سوياً

- إنّهُ يوم السبت تعلم بأنه يوم إجازة لا أحب الاحتفال

- تكلمنا بهذا الموضوع كثيراً وتعلمين بأنني ...

تنهد ثلاث تنهيدات قبل أن يكمل أرجوك يا حبيبتي هذا اختياري ويجب عليك تقبله، ودعها ومن ثم وعدها بأن يبعد التفكير بالموضوع هي تعلم تماماً.

عدم قبوله للذهاب معها وكذلك هي متسامحة مع كونه هادئ كوالده فبهذا تشعر وكأنه مازال موجود معها وخاصة كونه يشبهه كثيراً بصفاته وطباعه وبهذا تشعر بالأمان.

مع تزامن الوقت بين أحياء دمشق التي يقطن بها يزن كانت جولي ترتب أغراضها للذهاب إلى جامعتها كانت تدرس التمريض وهي أيضاً كان الحماس يملأها خاصة بعد لقاءها مع الجدة التي سترعاها وبهذا مكنت نفسها

من وجود دخل يخصها وحدها فهي دائماً ما كانت تحلم بالاستقلال الذاتي ولا تحب طلب المساعدة من أحد.

غادرت منزلها مسرعة فهي تريد إنهاء دوامها والذهاب للعمل وهي بكامل الشوق واللهفة.

قد يبدو لك أنك نسيت وربما أنت تتجاهل عمداً ولكن سيأتي موقف يذكرك بكل شيء حتى أدق التفاصيل تذكر هذا دائماً حتى إن أصاب عقلك زهايمر القلب.

وقف يزن بضع دقائق على إشارة المرور، ولكن ما لبث حتى ضجر من حركة المرور وخصوصاً في فترة الصباح وما إن لمحت عينه الساعة انتابه الذعر لقد تأخر كثيراً ولم ينتبه بأن حركة المرور لم تسمح بعد،

وبلمح البصر اصطدم بفتاة شابة والآن أصبح كل شيء معقد تجمع الناس حولي ليروا ما حدث والبعض الآخر وقف محاول الاتصال بالإسعاف.

تنبه يزن بعد أن كان في حال جمود بأنه يجب فعل شيء ركض مسرعاً باتجاه الفتاة حملها وضعها في سيارته دون وعي أو إدراك وذهب بها إلى المشفى.

دقات قلبه تتسارع بقوة، وصل إلى المشفى ادخلها إلى غرفة الطوارئ، أتى الطبيب أخذها للمعاينة بعد ساعة.

خرجت الممرضة قائلة: الحمد لله على سلامتها، لا يوجد شيء خطير بضع رضوض في يدها وسوف تتحسن ويتم نقلها إلى غرفة خاصة.

تشكَّرها وذهب إلى الغرفة.

- دخل يزن إلى الغرفة وجلس عل الكرسي المقابل لها، كانت فتاة شابة بملامح بريئة أشبه بالملائكة، مرّ نصف ساعة على تأمله لها استيقظت على مهل.

- أين أنا وما الذي حدث معي؟

- اهدأي، نحن الآن في المشفى، أعتذر منك هذا خطأي ولكن كل شيء على ما يرام.

- وهل هذه طريقة للاعتذار عن الخطأ، كنت قد تودي حياتي للخطر أيها الغبي.

هي كانت تثرثر غاضبة وتتكلم بشكل غير مفهوم وهو غارق في البحر الساكن في عينيها وكأنه دخل إليها واحتضن قلبها وعاش معها سنين طويلة.

- هل أنت تسمعني، بماذا تفكر يا هذا؟

- نعم أسمعك ولكنني أفكر كم قتيل أغرقتِ ببحر عينيك؟

- ماذا تقول؟ أريد منك اعتذار حالاً والخروج من هنا فقد تأخرت كثيراً.

- حسناً، ولكن بشرط هل لي بطريقة للاطمئنان عن صحتك؟

- لا بأس، ولكن أريد الذهاب فوراً.

أعطته الرقم واعتذر منها بباقة ورد نرجس وهو في طريقه لإيصالها.

كل شيء قابل للوقوع ربما حادث صغير يكون نقطة التقاء لعشق كبير. ولكن، إما أن تعيش حياة طويلة بسعادة أبدية وإما أن تعيش حزن كبير ليس له نهاية، خلال لحظة تقلب الموازين وتتحول السعادة إلى تعاسة مدى الحياة مضت شهور وأيام على تعارف يزن وجولي إلى أن أتى اليوم المنشود الذي قرر فيه الاعتراف بحبه لها وطلب الزواج منها...

- حسناً يا حنين مضى ساعة أفضل أن ترتاحي قليلاً وتأتي إلي ثلاث مرات في الأسبوع، ولكن ما الذي يقلقك؟

- المرأة التي أنقذتني قالت بأنها وجدت عقد برقبتي.

- يحوي رمز الصليب ولكن أنا مسلمة لماذا سأحمل رمز

المسيح.

- لا تتعبي نفسك الآن مع الوقت سيأتي كل شيء وتتذكري ولكن لا ترهقي نفسك بالتفكير.

خرجت من عيادة الطبيب وجدت براء بانتظاري.

- كنت قد اعتقدت بأنك مللت وذهبت.

- قلت لكِ بأني سأنتظر وأنا لا أخلف وعدي.

- شكراً لك، هل من الممكن أن أطلب منك شيئاً.

- طبعاً.

- أريد الذهاب إلى بيتي لجلب بعض الأغراض ارتبك براء بضع لحظات وكأنه يخاف من شيء.

حنين عزيزتي، مازلت متعبة فلنعد إلى المنزل وسآخذك إلى هناك.

في وقت لاحق وصلا إلى البيت ذهبت حنين إلى غرفتها لترتاح قليلاً أما براء فذهب إلى أم رامي ليخبرها ما حصل.

- السلام عليك يا أم رامي.

- وعليك السلام يا بني، ولكن ما بك؟

- بعد ما انتهت جلسة العلاج طلبت مني حنين الذهاب لبيت والدها، خفت كثيراً فأنا لا أريد أن يراني أحد معها

أريد أن تستجمع ذاكرتها رويداً حتى لا تصاب بانهيار آخر.

هذا صحيح أيضا ابنكم جود بحاجتها ومؤسف بأنها لا تذكره، اتصل بي والد حنين يريد الاطمئنان عن صحتها وقال بأن جود اشتاق لأمه كثيراً ويسأل عنها.

جلس براء على الكرسي بدأت دموعه بالانهيار قال بصوت مبحوح

- وأنا اشتقت لحنين يا خالتي ولكن ما العمل هي أمامي ولا يمكنني احتضانها أو حتى شم رائحتها إنها زوجتي وحبيبتي سأذهب إلى جود علني أراه ويهدأ قلبي.

ذهب براء ليرى انه جود وصولاً إلى أحياء دمشق القديمة، كان والد حنين يعتني به فقد عين براء مربية أطفال لمساعدته رغم كونه منزل بسيط إلى أنه يبعث الراحة والطمأنينة.

وصل براء إلى الباب نزل من السيارة وقف لبرهة من الزمن متأمل الحي والمنزل، حنين محقة لقولها بأن دمشق هي أحن أم في العالم وتبعث في النفس السكينة، طرق الباب عدة مرات قبل أن يفتح له طفل صغير بجسد ناعم ونظرات بريئة ركض عليه حاملاً إياه بين ذراعيه

- لقد اشتقت لك كثيراً، ألم تأتي معك؟

- جود يا حبيبي أمك مريضة قليلاً عندما تصبح أفضل ستأتي ونرجع لمنزلنا معاً ولكن أين جدك أليس في المنزل.

- لقد خرج منذ نفس ساعة أراد جلب لنا بعض الأشياء.

- إذاً تعال لنخرج معاً للحديقة واللعب، فرح جود كثيراً هو طفل صغير ذو خمسة أعوام شقيٌ وهادئ بنفس الوقت كان دائماً ما يقول عنه جده أنه يحمل تلاميح أمه وطباع أبيه.

أمضى براء اليوم بأكمله برفقة جود وعاد به لمنزل جده ليذهب للاعتناء بحنين لقد كثرت عليه الضغوط ولكن لا يريد التخلي عن حبه.

وصلا إلى المنزل وجدّ يزن بانتظاره.

- هيا أيها الشابان لقد أعددت لكما العشاء من منكم جائع

أكثر؟

هتف جود أنا جائع أكثر يا جدي ركض لغرفته وبدل ثيابه وغسل يديه.

وقف براء يتحدث مع يزن وأخبره ما الذي حصل معه وعن اصرار حنين للمجيء إلى هنا.

- عندما تصر عليك أكثر أخبرني ولنتركها تأتي ولكن يجب علي إخراج جود والخروج قبل المجيء.

- حسناً يا عمي كما تريد.

- والآن تعال نتناول العشاء وتخبرني كل شيء في وقت لاحق.

جلس يزن وبراء وجود لتناول العشاء

- أبي أريد منك أن تنام معي الليلة.

- أرجوك، غرغرت الدموع في عيني جود بما جعل براء لا يستطيع المقاومة

- حسناً، ولكن يجب عليَّ الذهاب بعد الفطور لأن لدي أعمال

كثيرا صرخ جود فرحاً واحتضن أباه لسعادته.

- في ذلك الوقت كانت حنين تجلس أمام نافذة غرفتها تحاول

استعادة ذاكرتها قال لها الطبيب يجب عليك مساعدة بتسلسل

الأحداث لتسترجع الجزء المفقود منه، دخلت أم رامي تدعوها

لتناول العشاء.

- هيا يا عزيزتي حنين مرّ وقت طويل على جلوسك هنا يجب عليك أكل شيء.

- لا أتذكر شيء.... لماذا؟؟! أريد استعادة ذاكرتي بأقرب وقت

- ستفعلين ولكن كما قال لك الطبيب لا ترهقي نفسك، استجمعي قواك غداً لديك ثانية جلسة تبعت حنين أم رامي لتناول العشاء كانت هادئة كثيراً ولكن داخلها حروب وضجيج ولا يعلم بهذا إلا هي ذهبت إلى النوم بعد العشاء مباشرة فغداً لديها يوم طويل وشاق ولقد قررت أن تذهب للمنزل، رغم كل الكوابيس التي تراودها مرّ الليل عليها بصعوبة، استيقظت منذ الصباح الباكر، كانت أشعة الشمس ساطعة والعصافير

تزقزق لتعلن يوم جديد كان عقلها مشوش وتظن أن هذه المرة ستذهب للجلسة لوحدها حضرت نفسها ونزلت لتخبر أم رامي

عن ذهابها وجدت المائدة قد أعدت رائحة القهوة، صوت فيروز

تغني – أنا لحبيبي – ظهر بعد عدة دقائق براء يحمل فنجانين

من القهوة عندما رآها ابتسم لها.

- ألن تشربي القهوة أعددتها لكِ.

- شكراً لك.

جلست على الكرسي المقابل له كان قلبها يرجف وينبض بقوة، رشفت من الفنجان كانت تتأمل تلاميح وجهه عيناه العسيلة سمرته.

- لا أعلم لماذا يراودني هذا الشعور ولكنني رأيتك قبل

هذه المرة.

التفت إليها تأملها قليلاً وضحك ثم قال:

- نعم لقد تعارفنا منذ يومين ألم تتذكري.

- حقاً، شكراً لتذكيري والآن سوف أذهب لدي جلسة مع الطبيب.

- أعرف هذا جيداً تناولي فطورك سنذهب معاً.

- لا أريد، ثم أنك لن تنتظرني هناك.

- حسناً سأوصلك وأذهب لعملي ولكن أولا تناولي فطورك.

وبينما كانا يتناولان الطعام استيقظت أم رامي وخرجت لغرفة الطعام.

- صباح الخير، أرى أنكما استعديتما تماماً للذهاب.

- لماذا لم تيقظاني؟

- صباح الخير والدتي العزيزة، لم نرد ازعاجك

- صباح الخير يا خالتي كما قال براء لم نرد ازعاجك.

- والآن المعذرة والدتي سوف نذهب.

خرجا معاً للذهاب كان الطقس جميلاً وبه نسمة برد خفيفة، أوصل براء حنين إلى عيادة الطبيب وذهب لعمله، أما حنين جلست لانتظار دورها بعد نصف ساعة، خرج الطبيب.

- صباح الخير يا حنين تفضلي إلى الداخل، طبعاً إذا أردت؟

- صباح الخير... طبعاً أنا قادمة.

دخلت للغرفة وجلست على الكرسي المقابل له

- والآن كيف حالك اليوم... هل هناك شيء جديد

- لا... لا شيء وهذا يحزنني كثيراً، أطلقت تنهيدة وشردت

إلى ما لا نهاية.

- والآن ما رأيك أن نكمل قصتنا حيث وقفنا بالنهاية؟

- كما تريد.

في صباح اليوم الرابع والعشرين من شهر نيسان داخل الأحياء الدمشقية استيقظ يزن والبهجة تغم قلبه، كل شيء أصبح جاهز بعد أن أمضي الليل بأكمله يفكر بالطريقة التي سيصارح بها جولي بحبه ويعرض عليها الزواج منه اتصل بها وأخبرها بأنه سيمرُّ لأخذها من منزلها بعد ساعة، نزلت جولي من المبنى التي تقيم فيه كانت تلبس فستان باللون الزهري الفاتح تاركة شعرها الذهبي ينسدل على كتفيها برقة ونعومة في كل مرة يرى بها محيط عينيها يغرق ويسكن بهما.

صعدت إلى السيارة وجلست في المقعد المجاور ليزن.

- حسناً أنا أصبحت جاهزة، ولكن ألن تخبرني شيئاً

عن المفاجأة؟

- سأدعك ترينها ولن أخبرك وإلا لن يكون اسمها مفاجأة.

على ثغره ابتسامة لطيفة وكانت عيناه العسليتين تلمع بشدة، شق طريقه بهدوء إلى مطعم في جبل قاسيون، كان هادئ نوعاً ما، خرجا من السيارة ودخلا إلى المطعم وبمجرد دخول جولي بدأت فرقة موسيقية بعزف مقطوعة موسيقية من (موزارت) كانت الأجواء في الداخل تعطي انطباع الرومانسية بأضوائها الخافتة ومفروشاته المطلية باللون الأحمر والأسود يعطي انطباع غريب نوعاً ما.

نظرتْ إلى يزن بعيون امتلأت بالحب والشوق والامتنان على كل شيء وعلى كونه موجود في حياتها.

جلسا على الطاولة التي حجزها لكليهما وكانت تطل عل مكان مرتفع تشاهد منه دمشق بأكملها.

- أنا أعلم جيداً يا عزيزتي كونك بالنسبة لي مثل شامي

ساكنة بي وأسكن بها وأنا كابنها مهما ابتعدت عنها أبقي كاليتيم والتائه دونها.

كانت جولي غارقة ببحر كلماته وعينيه العسلية منتشياً باللحظات التي تعيشها وقلبها يتراقص على إيقاع الموسيقى التي تعزف.

أكمل يزن كلامه قائلاً:

- أريد منك أن تعيشي للأبد وأسكن بك لنهاية العمر، جولي هل تقبلين الزواج بي؟

- رائع إذاً تقولين بأن والداك عاشا قصة حب رائعة وتزوجا بإصرار نعم، قصة حبهما تخلدت في ذاكرتي كان والدي دائما يرويها لي بتفاصيلها الصغيرة والكبيرة حتى حفظتها.

- والدك! ماذا عن والدتك ألم ترويها لكِ؟

- أمي توفيت وهي تنجبني ولكنني حظيت بحنان أبي رغم كوني أشعر بألم فراقها وأبكي أحياناً، ولكن وجود أبي يجعلني قوية.

- أعتذر منك لم أكن أعلم...

- لا عليك لقد اعتدت.

- إذا وماذا حدث بعد ذلك؟؟

- بعد هذه القصة تمت خطوبتها بشكل معتاد فلم يجدو صعوبة بإقناع أهلهم ومن ثم تزوجا بكانون الأول.

- ولكن...؟!!

- ولكن ماذا؟!

- الغريب أن والدي لم يحكي لي سوى قصة حبهما لم يخبرني عن زواجه، ولا عن الأيام التي عاشها

- لماذا لم تسأليه عن السبب؟

- كان دائما يتهرب من الإجابة على سؤالي.

- إذا يجب عليك الآن الذهاب وكشف الحقائق.

- ما.. ماذا تقول؟ حقائق!... لا أظن أن أبي قد كذب عليّ

- إذاً وما قصة العقد ولماذا لم يتحدث والدك عن أمك كثيراً!

- أنت محق في هذا، سأذهب للمنزل وأسأل أبي.

- خرجت حنين من العيادة وقد تداخلت مشاعرها بين الخوف والحزن لماذا قد يكون والدها قد كذب عليها؟

إذا كان كل ما من قبل كذب إذا فحياتها مبنية على كذبة كبيرة؟

ولطالما والدها امتنع عن ذهابها لقبر أمها كان في كل مرة يخرج بحجة، أيعقل أن تكون ما زالت على قيد الحياة، ابتعدت عن التفكير وذهبت باتجاه بيتها إلى داخل الأحياء الدمشقية بينما كانت بسيارة الأجرة تتأمل سحر دمشق رن هاتفها أخرجته من الحقيبة كان براء الذي يتصل بها. أجابت على الاتصال بشيء من اللامبالاة.

- مرحبا، كيف حالك حنين؟

- سيئة جداً

- لماذا؟ ما الذي حصل؟

- هناك الكثير من الألغاز تدور في ذهني ويجب عليّ حلّها

- إلى أين أنت ذاهبة الآن؟

- إلى بيتي، أريد أن أسأل أبي العديد من الأسئلة ارتبك براء عندما عرف إصرار حنين على الذهاب إلى منزل والدها، ولكن لم يكن لديه حجة مقنعة لصدها.

بعد طول الصمت كسرته حنين بعد إن احتارت من ارتباكه

- ما بك؟ أأنت بخير؟

- نعم، أنا بخير ولكن رجاءً وافيني بكل خبر جديد لأطمئن عليك.

- حسناً، ولكن لا أعدك.

أغلق الخط براء واتصل بيزن والد حنين ليخبره بقدومها فلم يكن لديهم متسع من الوقت وفي هذه الأثناء كان يزن يلعب مع جود في الحديقة ولكن لحسن الحظ كان هاتفه معه بعد تكرار المحاولات انتبه يزن أن هاتفه يرن.

أخذ الهاتف وسار بعيداً عن جود ليرد على براء.

- أهلاً براء، هل هناك شيء جديد عن حنين؟

- نعم يا عمي أنها قادمة إليك أخرج أنت وجود من المنزل وأنا سأخبر الخادمة في المنزل عن الأشياء التي يجب عليها إخبار حنين بها.

- حسناً، نحن الآن في الحديقة سنخرج على الفور.

أسرع يزن باتجاه جود وأخذه ليذهب من المنزل قبل وصول حنين إليه كان من الصعب شرح كل شيء لها دفعة واحدة وخاصة بسبب وضعها الصحي.

التفت جود إلى جده ليسأله عن المكان الذي سيذهبان إليه

- إلى أين سنذهب الآن يا جدي؟

- سنذهب لشراء بعض الهدايا.

هتف جود فرحاً من سعادته وخرج مع جده ركبا السيارة وانطلقا، في نفس اللحظة وصلت حنين إلى الحي الذي يقع به المنزل كانت تمشي وتتأمل جدرانه مازالت تذكر طفولتها كيف كانت لم يكن لديها أصدقاء ولكن كان والدها كاف بالنسبة إليها، هو وجدتها رغم أنها فقدتها بشكل مبكر ولكن كانت تحبها كثيراً عندما وصلت إلى أمام باب المنزل تذكرت أنها نسيت جلب المفاتيح ولكنها لم ترد العودة دقت جرس المنزل على أمل أن تجد

أحداً فيه انتابها القلق أن يكون أبيها قد غادر المنزل ولكن بعد عدة دقائق فتحت لها الخادمة فدخلت دون نطق كلمة واحدة.

كانت الخادمة معهم منذ الصغر فهي تعرف حنين منذ صغرها بحثت في أرجاء المنزل فلم تجد والدها فنادت على الخادمة أم طلال.

- ما بك يا عزيزتي حنين، أخبريني عن ماذا تبحثين؟

- هناك العديد من الأسئلة أبحث عن إجابات عليها ولكن قبل هذا يجب أن أرى أبي أين هو؟

- عزيزتي والدك سافر إلى لبنان لعدة أسابيع لديه ممل ولكن إذا أردت اطرحي اسئلتك عليّ فأنا موجودة بينكم منذ مدة طويلة.

- حسناً، ولكن قبل هذا كله اقسمي لي أن تقولي الحقيقة.

- كما تريدين أقسمي لك بهذا.

بدأت حنين تطرح عليها مجموعة أسئلة عن العقد وعن سبب عدم ذكر يزن لوالدتها جولي؟ وعن الفترة الزمنية التي فقدتها؟

وما الذي حصل معها؟ ومن ثم أخرجت العقد لتريه لأم طلال أمسكته بين يديها وبدأت تتفحصه.

- حسناً يا حبيبتي ألم تذكري لمن هذا العقد؟

- لا، ولا أعلم لماذا أضعه؟

- ولكنه يعود لجدتك وهي من أهدتك إياه ومنذ تلك اللحظة لم يفارقك أبداً؟

- وكيف ذلك، ألسنا مسلمين.

- بلا يا عزيزتي أنت وأبيك (يزن) نعم ولكن جدتك مسيحية

- وهل هذا شيء صحيح، هل يمكن كونها جدتي.....

للحظة عادت بها ذاكرتها إلى الوراء أيام طفولتها كانت في الخامسة عشر من عمرها عندما وضعته لها جدتها وأيضاً عندما كانت تصحبها معها إلى الكنيسة، الشموع والموسيقى كل شيء بدالها الآن واضحاً وجلياً

- إذا الآن علمت سر هذا العقد إنه لجدتي كريستين.

- نعم، وهي من سمتك على اسمها ولكن لا يناديك به إلّا جدتك ولذلك القليل من يعلم كون اسمك كريستين وليس حنين.

- ولماذا لم يذكر لي أبي عن أمي شيئاً؟

- لأنه لا يود إحزانك ولكن إن أردت أخبرك عنها ما تشائين.

صمت داهم المكان كان عقل حنين مشوش وذاكرتها مليئة بالأحداث، فلم تعد قادرة على استيعاب المزيد.

بعد برهة من الزمن قامت بالرد، فقد كانت داخل عالم آخر لا يوجد أحد سواها وكأنها في غرفة مظلمة، ترى أمامها تلفاز قديم يعرض الأحداث كفيلم في اللوني الأبيض والرمادي تشاهده من الخارج، لكنها لا تشعر به.

تشاهد فتاة انطوائية وخجولة مشتتة بين دين أبيها وجدتها تارة تحمل القرآن وتحفظه وأخرى تحمل الإنجيل ذاهبة به نحو الكنيسة، بالرغم من كونها من المتفوقين في دراستها.

لكن لم يكن لديها أيّ صديقة أو حتى قريب.

تسلسلت الأحداث داخل ذهنها بسرعة ومن ثم شاهدت مرض جدتها ودخولها للمستشفى، جلوسها على مقربة منها، وقد كانت في عمر الخامسةِ عشر عندما مدّت يدها لها وناولتها عقد الصليب الذي لم يفارقها، وقامت بمعاهدتها بأن لا يفارقها بتاتاً.

عمّ السكون لعدة دقائق قبل أن تشاهد نفسها تبكي بجوار جدتها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

أعادها للواقع يد أم طلال وهي تضعها على كتفها، لتنهض من مكانها فهي لم تكن قادرة على احتمال المزيد.

- حسنا سأقوم بالمجيء إليك في وقت آخر، لكن لا تخبري والدي عن حديثنا هذا.

تفوهت كلماتها الأخيرة وعينيها ممتلئة بالرجاء فلقد كانت في حالة لا يرثى لها.

أشارت له أم طلال بالموافقة بإيماءة من رأسها.

لتذهب حنين من فورها ولكنها كانت تجهل وجهتها، ففي رأسها العديد من الأسئلة التي تريد إيجاد الإجابة عنها.

كانت تمشي داخل الأزقة القديمة وعينيها تتأمل الجدران التي حفرت بالزخارف الرومانية القديمة المتراصة، عند نهاية الزقاق كانت تتواجد الكنيسة؛ تلك التي كانت تذهب إليها مع جدتها، تقدمت نحوها بشكل تلقائي حتى أصبحت أمامها مباشرة.

مدت يدها وكانت على وشك دق الجرس عندما سمعت صوت رنين هاتفها، كان المتصل هو أم رامي ابتعدت عن الكنيسة وأجابت على الاتصال.

- مرحبا، حنين أين أنتِ...لقد قلقت عليك يا عزيزتي؟!

- آسفة يا خالتي كان يجب عليّ إخبارك ولكنني انشغلت سآتي إلى البيت فوراً سأروي لك كل شيء.

ذهبت حنين إلى بيت أم رامي وقد صممت على العودة ولكن في وقت لاحق، فلقد دخل الشك إلى قلبها وكان عندها احساس أن هنالك ثغرة ويجب عليها اكتشافها.

استقلت سيارة أجرة التي شقت طريقها إلى حي آخر من أحياء دمشق حيث كانت تقطن أم رامي وابنها براء.

كان الوقت طويل لدرجة أنه كان لديها متسع من الوقت للتفكير ما الشيء الناقص ولماذا تشعر بأن أمها على قيد الحياة؟ كان الليل قد خيم الأرجاء وصلت إلى باب المنزل دقت الجرس ثلاث مرات بعد عدة دقائق فتح لها براء عندما رأته بدا عليه الارتياب والغضب، ولكن ابتعدت ليترك لها المجال للدخول عندما وصلت إلى غرفة الجلوس شعرت وكأن البيت كان في حال فوضى عارمة بدأت بالبحث عن أم رامي حتى لمحتها من بعيد فذهبت إليها للتحدث معها.

- مرحبا يا خالتي، أنا آسفة على تأخري ولكنني ذهبت

لأمر ضروري إلى منزلي.

- حنين أرجوكِ لا تتأخري مرة أخرى في العودة إلى المنزل لقد قلقنا عليك كثيراً أنا وبراء فوضعك الصحي لا يسمح لكِ بإجهاد نفسك.

كان براء قد تبع حنين إلى حيث تقف وتتحدث مع أم رامي أكملت أم رامي حديثها دون الالتفات إلى براء.

- إذاً هيا قولي لي ما الذي حدث وماذا قد اكتشفتِ

- عندما ذهبت إلى المنزل عادت بي الذكريات إلى طفولتي عندما أخبرتني الخادمة التي تعيش معنا أن جدتي مسيحية.

- إذاً العقد هو ذكرى من جدتك.

- نعم، هو كذلك، هل يمكنني الذهاب إلى غرفتي.

اومأت لها أم رامي بالموافقة، كان واقفاً وراءها براء يترجاها لتمنعها من الذهاب ولكنها لم تستجيب له بكل الأحوال، بعد أن ذهبت حنين إلى غرفتها تقدم براء للتكلم مع أم رامي.

- خالتي ما الذي فعلته، كنت أود التكلم معها.

- وأنت بهذا الحال لا يمكن، أذهب وانظر لوجهك في المرآة، لقد جننت فعلاً.

ذهب براء إلى غرفته دون نطق أي كلمة، أما حنين فكانت في غرفتها بدلت ملابسها واستلقت على سريرها ولكن كانت كل ما علمت شيء تزداد أسألتها ويكبر الشك في قلبها، هنالك العديد من الأشياء التي يجب عليها معرفتها ولكن يجب عليها أن ترتاح قليلاً، لتستطيع البحث هذه المرّة.

لم تعاني قبل أن تغفل عيناها استيقظت في بيت صغير وأثاث بسيط سمعت صوت بكاء طفل صغير نهضت من السرير وذهبت إلى غرفة الجلوس كان هناك طفل تحمله امرأة وتحاول تهدئته وتقف إلى جانبها فتاة بعمر المراهقة عندما لاحظتا وجودها التفت المرأة إليها فتأملها لم تعرف ماذا تفعل ولكن نوبات بكاء انتابتها فجأة عدة دقائق مرت قبل أن تشعر بأم رامي وبراء يقفان فوق رأسها.

مسحت أم رامي على رأسها وأعطتها كأس من الماء حتى تهدأ عندما نظرت حولها وجدت نفسها أنها في غرفتها.

- عزيزتي حنين هل أنت بخير؟ لا تقلقي كان مجرد كابوس رغم كل الكلام الذي حاولت قوله لها إلا أنها لم تستطع أن تهدأ.

- أريد الخروج واستنشاق بعض الهواء النقي.

خرجت أم رامي لتبدل ملابسها وبعدها خرجت إلى الحديقة وجلست تحت تلك الشجرة التي كلما رأت كابوس أتت إليها واستندت بها وكأنها تعطيها القوة.

كانت تعتقد حُلّ لغز العقد سينهي كل شيء ولكن كل شيء بات معقد بعد الآن، لا تعلم ما الذي يتوجب عليها فعله، تذكرت كلام الطبيب عندما قال لها يجب عليها عدم التوتر أو القلق، وأيضاً شعرت بأن جسدها أصابه إعياء مفاجئ لكثرة الأحداث في الأسبوع الماضي لذلك ستأخذ يومين استراحة قبل الجلسة القادمة أما عن براء فقد قال أن لديه سفر عمل، وذهب إلى جود ليعتني به أيام العطلة وأوصى خالته أم رامي بحنين،

العطلة كانت من أجمل الأيام لجود الذي قضى معظم وقته مع أبيه أما حنين فلقد كانت تشعر بفراغ كبير.

في صباح يوم الثلاثاء ببداية الشهر التاسع كان الجو مشمس وحار جداً استيقظت حنين بتكاسل وارتدت ملابسها ومن ثم نزلت بشكل روتيني تناولت فطورها وذهبت إلى جلسة المعاينة.

كان يجب عليها الانتظار كون العيادة ممتلئة، تساءلت في سرها كم من الخيبات والمشاكل في حياة الناس كثرت حتى اعتادوا على زيارة الطبيب النفسي، منذ وقت طويل كان الذهاب إليه يعد ضرباً من الجنون أما الآن فلقد اعتاد الناس كثيراً وخاصة خلال الأزمة التي أتت والذي جعلها في حيرة أن معظمهم من النساء ضحكت في سرها ولربما كان معشر النساء لديهن مشاكل أكثر من الرجال تنبهت إلى كلام فتاتين كانتا تتحدثان عن العنصرية والأذى شّدها الموضوع للاستماع والمشاركة في الحديث، كانت تقول احداهن بأنه لا يجب علينا الاختلاط في الدين الآخر فهذا ليس مسموح أما الثانية فكانت تبكي قاطعتهما حنين وهي في حيرة من أمرها.

- عفوا هل يمكنني مقاطعتكما؟

- تفضلي.

- لماذا لا يجب اختلاط دين بآخر؟

- عزيزتي تقصد الاختلاط هو الزواج، من غير المسموح لامرأة مسلمة الزواج من رجل مسيحي، أو حتى الرجل المسلم رغم أنه يحل له الزواج ولكن سيجد الكثير من المصاعب بانتظاره.

للحظة شردت حنين لقصة أبيها وأمها فخطر لها أن تسأل

- وإذا كان الرجل والمرأة مسلمين ولكن أمه مسيحية؟!

- لا يزوجوه أبداً لأن أمه مسيحية.

زاد الشك في قلب حنين ولكنها لم تكن تريد أن تتوتر فغادرت مكان الانتظار لأروقة المشفى كانت تمشي حتى ترتاح قبل دخولها الجلسة العلاج، سمعت صوت يناديها فالتفت كان يبدو وأنه الطبيب.

- كيف حالك يا كرستين؟
- بخير، ولكن من أنت؟
لقد مر وقت طويل على لقاءنا لكن أظن أنك الآن بخير أرجو أن لا تعاودي لفعلتك لي نظرت إليه حنين بدهشة كبيرة وتساءلت عن ماذا يتحدث؟ ولكنه أدرك أنه قد فعل شيئاً خاطئاً بعد فوات الأوان، ورغم هذا أكمل كلامه بنوع من التهور ألم تقطعي شرايين يديك عندما علمت أن والداك انفصلا قبل وفاة أمك حدث هذا قبل سبع سنين كنت ما تزالين بعمر الثامن عشر.
بدأت الدنيا تدور في ذهن حنين بعد هذه الكلمات لم تعد قادرة على سماع ما يقول لها حتى أن الظلام بدأ يخيم تدريجياً حتى فقدت وعيها.
لا أعلم ما الذي يجري حولي ولكن جلَّ ما أذكره هو لقائي مع ذلك الطبيب.

قال لي بضع كلمات ومن ثم صمت خيم أرجاء المكان شعرت بنفسي أعود للوراء إلى ذلك الزمان الذي كنت به طفلة ذا خمسة سنوات تعيش مع جدتها كانت رغم فقدانها أمها لم تفقد حنان أبيها والذي استطاع تعويضها قليلاً.

أذكر أنّ هذا حدث في سنة السابعة والثمانين عندما كانت جدتي توصلني إلى المدرسة كان هو أول عام لي وأشدهم حماسي فلقد كنت أقوم بالكثير من النشاطات مثل عزف البيانو وحمل الرود في الكنيسة، ولكن ما كان يلفت انتباهي هو أن في كل يوم بعد أن تذهب جدتي كانت تأتي إلي شابة وتقبلني وتحضنني أيضاً كانت ترتب ملابسي وتصنع لي العديد من الحلوى كنت أحبها كثيراً وانتظر حضورها في كل يوم حتى اعتدت عليها، عندما كنت اسألها من تكونين كانت تقول لي بأنها ملاك بعث ليحميني.

في يوم من الأيام عدت إلى المنزل قبل أن آكل الحلوى وكانت هذه المرة قد وضعت لي دفتر ملوناً لم أرى ما بداخله لقد كنت أذكر هذا اليوم جيداً ربما لأن جدتي قد غضبت كثيراً بعد أن قرأت ما بداخل الدفتر، سألتني إذا كنت قد قرأت ما بداخله ولكنني كنت بطبيعة الحال لم أتعلم القراءة بعد وفي اليوم التالي انتظرت معي جدتي ولكن من مكان بعيد عني .
كنت لا اسمع ما يجري بينهم من حديث ،ولكنني كنت أشاهد ما الذي يجري شاهدت جدتي تتكلم والشابة تبكي ومن ثم غادرت المكان.
ولم اعد أراها بعد ذلك اليوم رغم أن جدتي كانت قد نبهتني بأن لا اتكلم مع أحد لا اعرفه ومع ذلك كنت دائماً انتظر الملاك الحارس ليأتي ليحضنني.

تتوالى السنوات واحدة تلو الأخرى في البداية ظننت سأحظى بالعديد من الصديقات ولكنني أصبحت وحيدة تماماً لذلك لم أحظ بالكثير من الذكريات كانت حياتي تعرض أمامي كفلم بدأ ولم يتوقف لا أعلم لماذا خطر على بالي يوم وفاة جدتي كنت في الخامسة عشر من عمري أتذكر هذا اليوم جيداً رغم كونها بخير إلا أنها فجأة تدهورت حالتها الصحية وفقدناها لكن كوني طفلة صغيرة لم يخبرني والدي ما الذي حصل بهذا اليوم و لم آبه أن اسأله ولكنني أتذكر جيداً عندما كنت في الكنيسة وفي وسط مراسم العزاء رأيت الملاك الحارس مجدداً ولكنه اختفى حتى قبل أن أصل إليه فقدت وعي يومها من كثرة بكائي على جدتي فلقد كانت أمي وجدتي وكل شيء بالنسبة لي.
فتحت عيوني ببطء لقد عدت الآن إلى الواقع لم يكن هذه المرة أحد ينتظرني حتى أصحو ولكنني للمرة الثانية وجدت نفسي بغرفة في المشفى وهذه المرة كان قد وضع مصل في يدي بعد عدة دقائق أتت لعندي الممرضة لتطمئن على حالي ، أردت النهوض فساعدتني للاعتدال وما لبثت حتى سألتها: كم ساعة فقدت وعي؟
- آنستي لا ترهقي نفسك لقد مضى على فقدانك الوعي شهر كامل تابعت

كلامها وكأنها سمعت سؤالي، أهلك بانتظارك أن تستيقظي سيأتي إليك والداك بعد عدة دقائق حتى ترتاحي قليلاً.

أعطتني بعض الأدوية بعد أن تناولت الفطور ومن ثم خرجت لتتركني ارتاح قليلاً.

مضى بعض الوقت قبل أن يطرق الباب، ويدخل كان ذلك الطارق هو أبي ولكن كان قد غزى الشيب رأسه ووجهه الجميل امتلأ بالتجاعيد رغم مظهره الأنيق ورائحة عطره الفواح إلا أن كبر السن قد بان عليه.

أو أنني للمرة الأولى أتأمل تفاصيله، جلس بجانبي وأمسك يدي التقت عيني بعينيه كان فيها الكثير من الحكايات وألف دمعة تخفي نفسها عني متسترة بوقاره واتزانه، كانت أول كلمة نطق بها هو: عزيزتي حنين أرجوكِ أعتني بنفسكِ أنا لست بحاجة للمزيد من التعب.

بحثت في عينيه برجاءٍ عن جواب واحد عن أسئلتي، ولكنه لم يجيبني على تساؤلاتي ولهذا استجمعت قوتي لطرح أسئلتي.

- أود أن أسألك الكثير يا أبي أهمها أنا لا أتذكر الحادثة التي وقعت لي وكذلك أريد أن أعرف لماذا لا تروي لي عن زواجك بأمي؟ بدأت يدي بالارتجاف وحلقي أصبح جافً ربما اكتفيت بهذا القدر من الأسئلة الآن لأنني لم أكن أستطيع تحمل الكثير من الصدمات

- حسناً يا عزيزتي سأروي لكي عن زواجي بوالدتك ولكن الحدثة التي أصابتك سأدعك تتذكرينها رويداً وعلى مهل.

- كنت أنظر إليه شعرت بأن هناك الكثير من المفاجئات المخبئة لي ومع الوقت بدأت اكتشافها وافقت لأنه لم يكن بيدي حيلة اعتدل في جلسته، وبعد ذلك بدأ يروي لي القصة كما هي، لقد كانت أول مفاجئة لي بأنه كان يروي لي قصة فيها الكثير من الخداع.

- إذا في صباح الرابع والعشرين من شهر نيسان استيقظتُ بسعادة فائقة وخوف كبير أنا لأول مرة سأكذب على جولي ولكن كما قالت لي أمي هذه كذبة بيضاء فأنا لا أريد أن يبعدني أي شيء عنها.

بدأت تجهيز نفسي ولقد كنتُ قد حجزت المطعم وكل شيء ومن ثم ركبت سيارة وذهبت إلى بيت حبيبتي، لقد انتظرت نصف ساعة قبل أن تظهر وعندما رأيتها ذهلت بجمالها وكأنني أول مرة أراها كانت ترتدي فستان بلون الزهري تاركة شعرها منسدل على كتفيها لقد كان يوماً مميزاً....

- قاطعته حنين بملل أنا أعلم كامل القصة ولكنك لم تقل لي إلى الآن ما الذي خبأته عن أمي؟ ماهي الكذبة التي من الممكن أن تدمر علاقة حب كبيرة؟

- أن جدتك مسيحية وليست مسلمة.

- وضع يده على كتفها وقال لها ولكن ماذا عن جود هو طفلك وأنتِ أمله في هذه الحياة ألم تستطيعي تذكره، استدارت حنين من فورها، كانت عيناها تلمعان وقلبها ينبض، لتقول بشيء من الارتياب هل لدي طفل، وفي تلك اللحظة دخل جود ذو الشعر الذهبي والمجعد وقام باحتضانها، كانت تبكي بحرقة، لم تكن قادرة على الشعور به كما تفعل جميع الأمهات، أو بالأحرى لم تكن قادرة على إعطاؤه الحب.

ابتعدت عنه ببطء شديد بعد أن قبلته من جبينه، وخرجت لتجد براء يقف خلف الباب وينظر إليها بصمت، كانت عيناه تتحدثان بكل شيء أما قلبه فقد وقف خائفاً يرتجف، لم يكن يودُّ فقدانها مرة أخرى.

كانت تلك اللحظات هي من اللحظات الأشد صعوبة بالنسبة إلى كليهما، دارت بهما الأرض ووقفت عند نقطة الفراغ، تلك النقطة التي لم يستطع أحد منهما اللقاء في الآخر وهو يعي ما يحصل معه سوى أنَّه يتألم من فرط الحُب.

اقترب منها براء وهو يمدُّ يده إليها، قال لها بصوت مبحوح دعيني أخبرك بالحقيقة، سأقوم بشرح كل شيء لكِ لكن لا ترحلي مجدداً.

شعرت حنين بالدوار تذكرت تلك الحادثة، كانت تقود السيارة مسرعة نحو الطريق إلى مطار دمشق الدولي، عندما رأت والدتها تغادر دون قول كلمة واحدة، لم تستطع رؤية ملامحها، ولا تعلم ما هو سبب مغادرتها المفاجئة، ألم تكن قادرة على مواجهة ابنتها وقول الحقيقة الكاملة!

أخذها براء من يدها وجلس معها على مقعد خشبي في الحديقة الخلفية، كانت هناك شجرة صنوبر جميلة جداً تتشابه مع ما رأته في حديقة منزل براء، ابتسم لها وقال بشوق، لقد قمتِ برعايتها جميعاً، لطالما أحببتِ هذا النوع من الأشجار، أصبحت جميلة مثلك أنت أليس كذلك؟!

عانقت يدها يده وأسندت رأسها على كتفه وهي تقول له: لماذا يا براء، عادت ورحلت في آن واحد، لو أنها لم تعد من الماضي كنت قد أحببتها أمَّا الآن لم يعد لي شيء لأعيش من أجله!

مسح دموعها بكلتا يديه وهو يقول لها، بلى لديك كل شيء، نحن بحاجة إليكِ، جود ابنك بحاجة إليك لا تفعلي مثل جولي وترحلي، صدقيني هو لا ذنب له!

سمعا صوت خطوات صغيرة على العشب، التفتا ليجدا جود ويزن يقفا خلفهما مباشرة، أمسك جود بباقة من الياسمين الدمشقي وقدمهما إليها قال لها بصوت طفولي: أعلم أنَّكِ مريضة، ربما لا تذكريني لكنني أعلم أنك أمي وهذا يكفيني.

نصف الحقيقة تكفينا لنعيش، وفي بعض الوهم السعادة، وفي الكثير من الحقيقة الوجع والألم، ذاكرة حنين ستعود إليها لا محالة، لا يمكن للمرء نسيان قطعة منه، ومن كبده لكن الهوس في كشف الحقيقة يُتعب المرء ليفقده اتزانه لذلك على المرء أحياناً الوقوف على حافة الحقيقة التي

يتعايش داخلها وإن لم يكن لدينا كل شيء، وإن فقدنا القليل يبقى لدينا الكثير لنعيش من أجله.

القصة الثالثة:

وتمضي الأيام

كانت الأيام تمضي في حلوها ومُرِّها لكن كانا قادرين على الاستمتاع بها كما تأتي

مُمسكاً عكَّازه وطرف ثوبه خرج من منزله القابع داخل ممرات باب شرقي ذاهباً إلى الجامع الأموي ليستطيع اللحاق بصلاة الجمعة، أخبرته زوجته أم عثمان بضرورة تذكُّر جلب البعض من الفول المدمس من عند الحمصاني قبل الوصول إلى المنزل.

أبو عُثمان رجل بعقده السادس، أستاذ لغة عربية متقاعد ويقوم على تحفيظ القرآن للأطفال صغار داخل حلقة تعليمية في مسجد قريب من منزله بعد صلاة العصر.

دخل إلى الفسحة الخارجية من مسجد بني أمية وقام بنثر بعض القمح على الأرض كما إعتاد بعد أخذ الموافقة من المشرف والقائم على المسجد، ليجتمع الحمام من حوله كأبٍ يرعى أطفاله الصغار، ابتسم برضا ودخل مُقبلاً نحو مقام يوحنا المعمدان ليقرأ الفاتحة، وجد أحمد صديقه الصغير بانتظاره، كان أحمد الطفل ذو العشر أعوام ينتظره بلهفة وفرح حاملاً مصحف من نسخة المدينة المنورة على شكل أجزاء متفرقة بحقيبة خُيّطت من القماش، اقترب منه وضع يده على رأسه وقَبَّل جبينه وهو يداعب شعره بكلتا يديه المرتجفتين، ليقترب من المقام ويسند رأسه إلى المقام وهو يقرأ الفاتحة عندما أُقيمت الصلاة.

أمسك الفتى يده ليساندَه للوصول إلى الكرسي الخشبي وجلس إلى جانبه، كانت عيناهما تلمعان بشدّة وقلوبهما تلتهمان حروف الخارجة من فَيهِ الشيخ قبل وصولها إلى مسامعهما وبعد انتهاء الصلاة نهضا معاً لكن هذه المرة تقدم أحمد بخطوات سريعة وهو يقوم بالنداء على أصدقائه وفي لحظات اجتمعت حلقة مكونة من عشرين فتى حول أبو عثمان الذي جلس بينهم وبدأ يقصُّ عليهم قصة الصحابي لهذا

الأسبوع، مضى الوقت ولم يكن يعلم بأنَّه قد تأخر في العودة إلى زوجته الغالية على قلبه.

نهض مُتَّكأً على عصاه وهو يمشي ببطء ويتقدم من خلفه الصبية تُعانق أعينهم الشيخ الكبير، خرج من المسجد والتفت نحوهم ليقوم بوضع

السكاكر الملوَّنة بيد كل واحد منهم وهم يبتعدون عنه بمرح وقد قاموا بأخذ غنيمتهم التي قاموا بالاعتياد على أخذها منه بعد كل درس عقب صلاة الجمعة.

عاد إلى منزله وهو يضحك في سِّره لقد استطاع النجاح بإدخال السعادة إلى قلوب الفتية هذا الأسبوع أيضاً، قامت باستقباله زوجته أم عثمان كانت تبدو عليها ملامح القلق والخوف لكنَّها حاولت الابتسام ولو بشكل مُزيَّف، تركته حتى مرَّ وجلس على المقعد الخشبي إلى جانب البحرة في منتصف الحديقة وجلبت له كأس ماء بارد، ارتشف منه عدة رشفات لتهدأ أنفاسه المتسارعة.

- إذاً يا زوجي العزيز أين كنت كل هذا الوقت وهل أحضرت لنا طعام الفطور؟!

قالت جملتها وهي تعلم تماماً ما الذي حصل، منذ عمليته السابقة أثر الأزمة القلبية وهو ينسى كل ما يقال له، تلعثمت شفتاه وهو يدور في نظره حائراً ونهض مسرعاً باتجاه باب المنزل، تقدمت منه أم عثمان زوجته التي تستطيع فهمه جيداً بعد عِشرة دامت أربعين سنة وهي تضحك بصوت طفولي وتقول له: لا عليك لا عليك لقد قمت بالمهمة عنك.

كانت الأيام تمضي في حلوها ومُرِّها لكن كانا قادرين على الاستمتاع بها كما تأتي إلى أن جاء الخبر الأجمل لقلبيهما سيأتي ابنهما عثمان في زيارة إلى الشام بعد غربة عقدين كاملين باصطحاب فلذة كبديهما أطفاله الثلاثة الصغار محمد ومريم وغيث وزوجة ابنهما الغالية.

كانا يتحريَّان وصولهم يوماً بعد يوم، وقد قاما بتزيين الحي والمنزل وتحضير الكثير من الأطعمة التي كان ابنهما يُحبَّها ويأكلها بنهم.

جاء اليوم الموعود كانا خائفين والشوق يملأ وجديهما، حتى كادا يعتقدان بأن الوقت لا يمرّ!

أتى عثمان فلذة كبدهما لوحده دون اصطحاب عائلته الصغيرة، كادت الكلمات تتلعثم من فمه والدموع تغرق عينيه لكنَّه تماسك ليستطيع إدراك عدم مجيء أحفاده وزوجة ابنه للزيارة؟

- بني لقد كنّا على أحرٍ من الجمر للقاء أين البقية ولماذا لم تقم باصطحاب عائلتك الصغيرة.

- صحيح يا والدي، لكن اتفقنا أنا وزوجتي بالمجيء إليكم ريثما تقوم بإفراغ الحقائب في الخزائن، فنحن سنأتي إليكم ونذهب إلى الفندق في كل ليلة.

- ولم الفندق يا ولدي ومنزلي أمامك، إنَّه كبير كما تعلم ، هو لكم أنتم ونحن ضيوفكم!

ومع كل الإصرار الذي قاما بإبدائه إلا أنه لم يوافق في المكوث معهما في منزله الذي عاش داخله طفولته.

كانا يمضيان طيلة الساعات القليلة من الليل وهما يعودان في الزمن ويستحضرا ذكرياتهما مع ابنهما عثمان، ابنهما الوحيد الذي غادر ليعود إليهما بعد كل هذا الفراق الطويل.

أشرقت الشمس لكن هذا اليوم لم يكن كأيِّ يوم.

- أسرعي يا زوجتي العزيزة، سيأتي أحفادنا الصغار في أيِّ وقت.

- لقد انتهيت من فعل كل شيء، كم أنا في شوق لرؤيتهم جميعاً.

طرق الباب فهرول الأب المشتاق ليقوم بفتحه وهو يرحب بهم أشدُّ الترحيب، لم تكن زوجة ابنهم كما كانت توقعهما لكن اختارا التعرف والتحدث إليها قبل إصدار أي حكم، جلست العائلة أمام الطاولة الخشبية المستديرة وملامح الثلاثة الصغار تملأها الدهشة.

قال أحمد بصوته الطفولي العذب: جدي متى سنذهب إلى الجامع الأموي!

ابتسم أبو عثمان وقال له: غداً هو يوم الجمعة سنذهب معاً أنا وأنت.

أكملت العائلة فطورها لتقوم بجولتها حول المنطقة، كانت جلنار شابة في عامها الثلاثين من الأردن وقد التقت بعثمان عن طريق الصدفة في برلين وهي تعمل بنفس الشركة اجتمعا وكان الزواج هو بداية الطريق لهما، كانت هذه المرة الأولى التي تأتي بها إلى سوريا، لذلك كانت متحمسة للتعرف على دمشق القديمة ورؤية الآثار وبالأخص كون التاريخ والآثار إحدى اختصاصاتها، وبالرغم من الحصول على قدر كبير من المتعة والتشوق في رؤية الطرق إلا أنهم قد حصلوا على القدر نفسه من التعب لذلك اقترح أبو عثمان على ابنه في العودة إلى منزلهم على العودة إلى الفندق وقد وافق لكونه متعب جداً وليس لديه أي قوة للرفض، كانت تلك الأمسية مليئة بالأصوات الموسيقية الممتزجة بالمرح وقد صرَّحت أم عثمان بخجل وتردد بكونها قد درست الموسيقا وعزفت على العديد من الآلات منذ الصغر، وهذا السرّ الصغير جعل الجميع ينشدها بعزف بعض المقطوعات الموسيقية الدمشقية والعريقة على العود، تحلَّق الجميع حولها وهي تضع العود على ركبتيها وتتلاعب في الأوتار بين أصابعها لتصدر أنغام جميلة أعادت الجميع إلى الزمن الجميل.

وفي اليوم التالي ذهب محمد مع جده إلى المسجد الأموي ليزور مقام سيدنا يحيى عليه السلام، أخذ كيس ورقي ممتلئ بحبات القمح وأمسك يد محمد وهو يدخل بين الأسواق متجهاً نحو الفسحة الخارجية للمسجد، أمسك الطفل الكيس الورقي وبدأ يرمي الحبات عند الزوايا التي أخبره عنها جده، كان أبو عثمان ينظر إلى أحمد بعين الجدّ المفتخر بما مضى من عمره وقد رأى حفيده يلعب ويلهو بين أسراب الحمام المتحلقة حوله بكثرة، بعد نصف ساعة أقيمت الصلاة واتجه نحو أحمد ليمسك يده ويدخلان سوياً إلى الداخل، كان يمسح على رأسه ويقبله، عندما ركض نحوه أحمد الفتى الذي كان ينتظره في هذا اليوم بالتحديد، كان كعادته مُمسكاً المصحف مُنتظراً قدومه بفرح وشغف، هذه المرّة لم يرَه أبو عثمان بل تقدّم نحو المقام وهو يُمسك يد حفيده، حنى أحمد رأسه وهو يرى جدِّه الذي كان ينتظر قدومه عند كل صلاة الجمعة ليأخذ من حنانه

ويعانقه بحُبّ، فكّر للحظة بأنَّه لم يعد بحاجة إليه لذلك قرر الانصراف دون إحراج نفسه بأنّه يصبح عبء ثقيل أو رؤيته بعض الشفقة التي لم يرَها قبل الآن في عيني جدِّه الأكثر قرُباً منه.

أبو عثمان لم يكن جدَّه فقط لقد كان الرجل الذي استطاع انتشاله وعائلته من تحت الأنقاض وإعطائهم منزل يحميهم من البرد، كان قادر على بثِّ شعور السلام داخله بالاستمرار، بالرغم من كونه طفل صغير إلا أنه لم يكن قادر على التعايش إلا مع حقيقة بأنَّه سيكبر دون المرور بهذه اللحظات كما يفعل بقية أصدقاؤه أو أنَّه قرر عدم المرور بها بسبب أوضاعهم المعيشية.

بالرغم من مرور الوقت بشكل سريع إلا أنني وجدته أطول بكثير من السابق، كُنت قد اعتدت على عناق الجدّ الحنون الذي كان يغمرني به جدّي أبو عثمان، وأنا أنتظره بشوق ولهفة وبيدي مصحفه الذي إعتاد على القراءة منه ورده الأسبوعي ، إلا أنه لم يرَني كان يمسك يد طفل من عمري أعتقد كونه أحد أحفاده ينظر إليه بُحب، لم أعلم بأن للغيرة طعم مُرّ كالعلقم كنت أمضغه داخل قلبي وهو يعتصر من الألم والحزن، جلست على مكان من مقربة منه وأنا أنظر إليه وهو يشير إليه ويشرح همساً ما يقول الخطيب أثناء الخطبة قطبت حاجبي بغيظ هل لغته العربية غير سليمة أم أنه أتى من بلاد أجنبية لا يفقه شيئاً، انتهت الخطبة وقد شعرت بالضيق اقتربت منه يخرج لأتحدث معه وجدته يتحدث مع بعض الحضور فكانت فرصة لي في التعرف على الفتى أمسكته من يده و أنا أعود به إلى مكاني السابق، والمريب في الأمر بأنه إنقاد لي دون اعتراض!

وقفت وأنا أحاول تهدئة أنفاسي المتسارعة أما هو فقد كان يقف أمامي وهو يرسم ابتسامة عريضة، مد يده وهو يقول لي بلهجة عربية ركيكة.

- أنا أحمد وأنت؟

- محمد.

- هل أنت من هنا!

- نعم ولا، أبي من هنا، لكنني ولدت في ألمانيا، تحديداً برلين وعشت بها وقد أتينا منذ أسبوع فقط.

نظر إليه أحمد بارتياب وهو يتفحصه بدقّة، لكنَّه تذكر خوف أبو عثمان عليه، بعد معرفته بكونه غريب عن المنطقة ولن يستطيع العودة، أمسك يده وحاول إعادته إلى المكان الذي كان يقف به الجد لكنه لم يفلح، في هذا الوقت بالذات كان أبو عثمان يجول حول المكان باحثاً عن حفيده، وهو يعين نفسه بعكّازه فيهرول هنا وهناك لكن دون جدوى، بعد نصف ساعة من البحث المستمر تقدَّم إليه شاب في العشرين من عمره يحمل كرسي ليرتاح وتهدأ أنفاسه المتسارعة، جلس وهو يشاهد المارة من حوله لقد وصل إلى أبعد نقطة من نهاية سوق الحمدية ولم يستطع العثور على شيء، للوهلة الأولى أعادته ذاكرته الرديئة إلى نقطة البداية، ربما قبل خمسة و ثلاثين عاماً، لم يكن ليستطيع نسيان هذا اليوم أو حتى تخطيه كما لم تفعل زوجته، في ذلك اليوم كان يمسك يد ابنته الصغيرة ذات الأربع سنوات للذهاب معه إلى المسجد الأموي فقد كانت تحب الحمام وإطعامهم، لقد أخذ على نفسه عهداً بإطعامهم بدلاً عنها منذ اليوم الذي فقدها فيه، انسابت دموعه على وجهه فآثر مسحها والعودة إلى المكان الذي فقده فيه وهو يردد داخله، لن أفقد حفيدي محمد كما فقدت ابنتي فاطمة.

أما أحمد الذي لم يستطع العثور على الجد فقد قرر الذهاب إلى إمام المسجد وإخباره بما حصل بالتفصيل، وقام بجمع الفتية حوله ليخبرهم بالذي حصل معه وعن سبب إلغاء حلقة اليوم وعدم قدوم الحاج أبو عثمان، ليتفاجأ بإصرارهم على إيجاده وإخباره بمكان حفيده محمد، لذلك قرر الإمام إبقاء الفتى معه ريثما يتم العثور عليه، وخرج الفتية مسرعين في كل اتجاه وهم يبحثون عنه، كان أبو عثمان يتوغَّلُ بين المارة وهو يحاول مكابدة أنفاسه المتسارعة بيديه المرتجفتين، عندما وجده أحد الفتية اقترب منه وصرخ بأعلى صوته ليسمعه بين الضجيج من حوله.

- عمي الحاج أبو عثمان، محمد في المسجد ونحن بانتظارك.

طرقت السعادة قلبه من جديد كما لو أن الروح قد عادت إليه، فعاد إلى المسجد وهو سعيد، وجد الفتية أمام المقام كانوا متحلقين لكن هذه المرة حول حفيده وهو ينشد لهم بصوته العذب آيات قرآنية، تقدم بهدوء وجلس إلى جانبه، وعندما انفضَّ المجلس من حوله ونهضا ليغادرا وجد أحمد بانتظاره وهو محني الرأس حزين وقبل أن يبدي أي قول قال له

- جدي أنا أعتذر منك كثيراً، لم أكن أقصد إخافتك على محمد، فقط كنت أود التعرف عليه ومعرفة عدم رؤيتك لي.

ابتسم أبو عثمان وتقدم نحوه مسح رأسه وقَبَّل جبينه، أما محمد فقد عانقه كما لو أنَّه عاش معه منذ زمن طويل، علم بهذا أنَّه لن يخسر محبة جده وهذا ما جعله أكثر راحة وسكينة.

وتمضي السنين ليصبح أحمد شاب في عقده الثاني وقد حفظ القرآن الكريم كاملاً وأستاذ يُعلِّم الأطفال داخل حلقة تتجمع حوله عقب صلاة كل جمعة، بالرغم من عدم لقائه مع الجد أبو عثمان أو حتى حفيده الفتى الصغير إلا أنهما كانا محفوران داخل ذاكرته وقلبه معاً، وفي إحدى المرات التي كان يقوم بإعطاء درسه في الفسحة الخارجية وهو يقوم بجولة في

أرجائها كما كان يفعل دوماً أبو عثمان معلمه وأستاذه الأول، سمع صوت عذب من بعيد، تقدَّم إليه وكأنَّه قد سمعه من قبل لكن لم يستطع استحضار ذلك الصوت بشكل جيّد كان شاباً يبدو عليه كونه غريباً عن المنطقة اقترب منه وعانقه بقوّة وقبل أن يبدي أي قول قال له بلغة عربية فصيحة

-أنا محمد حفيد الحاج أبو عثمان ألم تتذكرني!

- إذاً أنت هو الفتى الجميل الذي قاسمني محبّة جدي، كيف حاله الآن؟

حنى رأسه وقد توارت ابتسامته السابقة وهمس بصوت حزين، توفي جدي قبل رحيلنا ببضعة أسابيع فقرر والدي أخذ جدتي للعيش معنا، كنت أعتقد بمعرفتك للأمر!

وفي هذا الوقت أقيمت الصلاة وارتفع صوت الأذان بالتكبيرات، كانت أسراب الحمام تُحلّق حول المسجد والسماء صافية وضع محمد يده على كتف أحمد ودخلا إلى المسجد معاً.

على الرغم من رحيل أبو عثمان عن الحياة إلا أنه ودَّعها وقد ترك من بعده حفيدان شابّان يعيشان على نهجه كما كان دوماً يتمنّى.

القصة الرابعة:

رسائل لن تصل

-هل تعلم يا عزيزي لماذا نحاول دوماً الكتابة عن خبايا أنفسنا وما نشعر به اتجاه الآخر دون حرج داخل تلك الرسائل القديمة؟!

- لكوننا نعلم بأنَّ تلك الرسائل لن تصل إلا في وقت متأخر، وبهذا نثق يأخذنا الوقت الكافي قبل انكشاف تلك الأسرار الموضوعة داخل الصندوق المظلم.

أكتب إليك رسائلي وأنا أعلم جيداً أنَّك لن تقوم بقراءتها، أو حتى فتح الغلاف الذي أتقنت إحكامه كما لطالما أحببت، لكنني أعلم جيداً بأّنك سوف تكون سعيد بل مُمتن جداً كما يفعل كلُّ رجل يرى أنثى من طراز خاص، ترسل له مُخبرة عن شوقها وحُبِّها رسائل تفوح منها رائحة الشوق المتسلل من غياهب الماضي، مَسروق من ساعات الحاضر، ممزوج بأسى وحزن المستقبل الواهن، أكتب حروفي لك يا عادل، العادل في كل قضاياه عدى عن قضيته الكبرى، تركها بالماضي مُعلَّقة لم يقم بنقدها أو حتى إصدار الحكم بها.

كان عادل يقرأ الصفحات بشوق ولهفة وكأنه لم يرَ الحروف قبل الآن!

ولربما لأنها أعادته لعشر أعوام وأكثر ليجلس في مكان هادئ بعيداً عن صخب الحياة وكأنه كان يودُّ استحضار ذاكرته مع تلك الرسائل.

١ من نيسان ١٩٨١ ميلادي

ها هو اليوم الأول الذي أقوم به بكتابة رسالتي إليك، تلك الرسائل التي أعلم جيداً بأنَّها لن تصل إليك فأنا لم أكن يوماً بتلك الجرأة التي كنت قد اعتقدت.

ما زلت أحتفظ بالصورة التي جمعتني بك ذات خريف عند سور الحديقة التي كُنَّا نتردد إليها بين الحين والآخر، تُمسِك يدي واقفين جنباً إلى جنب، في ذلك اليوم شعرت بك تمسك أطراف قلبي لا يدي، كانت عيناي تلمعان بشدَّة بدا لي الكون أكبر بكثير مما اعتقدت تبدأ أولى معجزاته بعينيك وتنتهي بقلبي العاشق لكل شيء حولك ويحمل رائحة عبقك، عادل عزيزي، الحُبّ الذي لم يعدل بيني وبين الحياة أُحبّك بحجم الفراغ الهائل بيني وبينك.

مُحبَّك العالية في الحنين إليك.

١ أيار ١٩٨٣ ميلادي

لقد مرَّ عامان على بُعدك عنِّي، اشتقت إليك كثيراً وقد بدأتُ برؤية ملامح وجهك في كلُّ الوجوه من حولي وإلى جانبي، أسمع صوتك بين المارّة فأبحث عنك، هل أصابني الجنون أم أنَّه الحُبّ كما قالت لي العرافة التي زرتها منذ عدة أيَّام!

ذهبت إليها وقد قالت لي صديقتي بأنَّها الحلُّ الأمثل للقياك، وهي التي قامت بجمعها بزوجها وشريك عمرها التي أحبَّته، انقدت إليها كما تُقاد الفريسة إلى الصياد، كانت امرأة عجوز بشعر أشيب وثياب غريبة المظهر، تضع إلى جانبها جميع أنواع البخور و يظهر على وجهها التجاعيد التي خلّفتها السنين، أمسكت يدي وبدأت تتحسس باطن كَفِّي وهي تُمعنُ النظر بها وبين الخطوط، قالت لي وهي تبعد يدها عني ، أحببته كثيراً وسيحبّك بجنون كما تفعلي دوماً، لكنَّك ستغادرين هذا الحبّ بقرار منك لا منه، وبهذا القرار سيكون هلاكك، غادرت المكان وأنا أقول داخلي كذب المنجّمون ولو صدقوا!

هذا مجرد هراء وكذب، لم أكن أعلم بأنه اليوم الذي سيتقرر به هلاكي المحتوم، وقد رأيتك في نفس اليوم ونسيت ما قالت لي تلك العرّافة لفرط الشوق إليك.

١١ من كانون الأول ١٩٨٣ ميلادي

لم أعد أكتب إليك الرسائل، لقد أصبحنا أصدقاء بالفعل، نتحدث طيلة النهار، كنت ألتهم صوتك بقلبي وأحتضنه بعيداً عن العالم أجمع، لقد بنيت لنا حصن عايد لا يصل إليه إلا كلانا، لم أعد أُحبّك أصبحت النبض الذي يجري داخل قلبي، عالية تلك الحروف الأربعة التي تنطقها في كلُّ يوم تُصيبني بالجنون المُحتَّم، عاشقان نحن يا عادل وأنا الآن قضيتك الكبرى التي ستواجه بها العالم كما قلت لي اليوم، لذلك قررت كتابة قصة تلك القضية، قصّة حُبّنا سندخل التاريخ من أوسع أبوابه وسنكون العاشقين المختلفين عن الجميع ممن حولنا، هذا كان أول وعودنا أليس كذلك يا حبيبي!

أيضاً هو أول يوم لي في الحقوق فأنا سأصبح محامية بارعة مثلك لأحقق العدل منك، لكن عينيك ستبقى المعادلة الأصعب في الكون أجمع وأولى الإلهية.

وبالمناسبة اشتقت إليك كثيراً، فمتى اللقاء.

محبّتك العالية في الشوق لعطرك.

١٥ شباط ١٩٨٣ ميلادي.

هذه الأيام التي كانت تمضي كانت تشعرني بالضيق والحزن ، بالرغم من كونك إلى جانبي لم تغادر أو ترحل إلا أنني كُنت أشعر بالحزن واليأس، الكابوس الذي كنت أراه في تلك الليالي الحالكة كانت تذكرني بكونك أصبحت كالقمر البعيد، لن أكون قادرة للوصول إليه، أصبح حُبّك شجرة ضخمة أستظلُّ تحتها لكنني لا أستطيع الوصول إلى فروعها أو حتى الامتزاج داخلها لأصبح غصن من أغصانها.

لذلك قررت الابتعاد رُبما حان الوقت لأشعر بطعم الشوق المرِّ الذي كان يمضغه قلبي وهو بعيد عنك، أرجو منك أن تعذر أنانيتي، لكنك أصبحت كالسماء لا أنا قادرة للوصول إليها ولا هي قادرة على الركوع من أجلي!

٢٠ كانون الأول ٢٠١٣ميلادي.

في هذا اليوم بالتحديد قرأتُ نتيجة الامتحانات النهائية وقد تُمّ ترفيعي إلى السنة الثانية، وهذا يعني بأنني اقتربت من حُلمي سنة أخرى، ما زلت أنتظر يوم التخرّج بفارغ الصبر، لكنني أشعر بالضيق بعد إخبار عائلتي بقرار خطوبتي منك، إلا أن عائلتي رفضت الأمر كما لو أن الوباء قادم من خلال زواجي بك أو أن الكون سيُدمّر، في المساء قالت لي والدتي بلهجة مبالغ بها

- عزيزتي عالية الزواج مؤسسة قائمة على أمور كثيرة الحب طرف فرعي داخلها، عادل لا دخل لديه أو حتى منزل، لا عمل مستقر ولا حتى راتب شهري، ما يزال يدرس الماجستير ويريد دراسة الدكتوراه الطريق أمامه طويل جداً.

- وأمامي أنا أيضاً، سنمشي معاً وتساند بعضنا البعض..

- ستكونين الحمل الثقيل الذي يُثقل كاهله، الحُبّ مختلف عن الزواج، هو المسؤولية واتحاد العائلات وليس فقط بناء عائلة صغيرة، و ما زلتما شابّان على الأخذ بهذا القرار بشكل رسمي.

كانت هذه المحادثة بالنسبة لوالدتي هي القاطع للوصل بيني وبينك يا عادل، لم أستطع النوم في تلك الليلة أو حتى الاحتفال بترفعي للسنة الثانية كما فعلت أنت.

٢٠١٣/٤/٢١ ميلادي.

اليوم هو الأجمل من كل عام، مرَّ شهر واحد فقط على ابتعادي عنك لكنني شعرت بها وكأنَّها مئة عام وأكثر، لذلك قررت المجيء إلى منزل عائلتك والقيام بزيارة لك ولصديقة الطفولة شقيقتك الصغرى لجين، ولكن عندما فتحت الباب ووقفت أمامي شعرتُ بعينيك المرتبكتين تنظران من حولك، وأنت تتلعثم في الحروف، هذه المرة الثانية التي شعرتُ برائحة الكذب التي تفوح منك حتى ياقة قميصك، قلت لي بارتباك بوجود البعض من الأقارب، حتى أتت لجين وقامت بإدخالي إلى المنزل، ابتعدت عن طريقي هذه المرة ذاهباً إلى المطبخ، خمَّنت أنَّك تودُّ الحديث معي، لكنني فوجئت برؤية صديقتي المقربة مني ليلى لماذا ؟!

لم يكن السؤال عن الخيانة، ولقد طغى سؤال آخر أكثر وجعاً ومرارة من غيرتي عليك، لماذا قمت باختيار صديقتي المقربة!

ولقد كنت أتحدث إليها، كانت شقيقتي التي حرمتني من وجودها الحياة، أعطاني ليلى لتأخذها مني مجدداً لكن الألم أصبح أكثر مرارة.

١ كانون الثاني ٢٠١٣

يمكنك الآن معرفة مكان تواجدي، أنا الآن في المشفى ولكن الخاص بالمصحّة العقلية، هكذا كان اقتراح الطبيب القائم على علاجي منذ الآن سأعيش داخل هذا المكان، لم يعد لي الأمل في الخروج منه، ودعتني عائلتي عند الباب وقمت بالدخول لوحدي، أنظر للمارة من حولي ولا أرَ الوجوه، لا أسمع الأصوات، لا أشتم الروائح، أصبحت مجردة من كل شيء سواك، ها أنا أصبحت مجنونة بك، أقوم بكتابة الرسائل تلك التي لن تصل، بداية الأمر شعرت بالحزن لكوني أصبحت وحيدة، أمَّا الآن وقد اعتدتها أصبحت أكثر راحة وسكينة.

ولكنني بدأت بالنسيان، فأضع الأغراض وأنسى مكانهم، أذهب إلى المكان ولا أعلم ما الذي أتى بي إليه، لذلك أقول لك بأنني لن أعود من هذا المكان، فأنا أنسى كل شيء قال لي الطبيب عند الجلسة الأخيرة بأنني أصبت بالزهايمر، ضحكت بهيسترية وقلت له بشيء من المزاح أصبت بالزهايمر للمرة الألف وفي كل مرَّة نسيت الكون بأجمعه ولم أنسَ عينيه العسليتان، حضنه الدافئ وعبق رائحته.

وضع عادل الأوراق جانباً ونظر إلى داخل عيني عالية كانت لا تراه وكأنَّها استبدلتهما بعينين لا تريان، أو أنه أصبح لا مرئياً، أمسك يديها وقبَّلهما مراراً، كانت عينيه ممتلئتان بالدموع، كيف بالإمكان البوح لها بأنَّه لم يتجرأ يوماً على خيانتها كانت ليلى قد أتت إلى منزله ليجد الحلّ المناسب لتكون زوجته، كانت عاليا تعرفه جيداً لقد كذب عليها مرتان فقط.

أما المرة الأولى فهي اليوم الأول له في القضية الأولى لم تكن تلك القضية ناجحة وقد فشل فشلاً ذريعاً، لكن نظرات عاليا إليه جعلته يخجل من قول الحقيقة.

أمَّا المرة الثانية فهو اليوم الذي جاءت به ليلى منزله تحدثه عن عاليا وما يتوجب عليه فعله للحصول عليها.

لكن الآن أصبحت الحروف والكلمات لا نفع لها أو جدوى، نهض من مكانه وعانقها بعمق وقبّلها من جبينها، عندما اقتربت منه إحدى الممرضات وهي تقول له

- لماذا تُكابد كلّ تلك الأوجاع، من أجل امرأة لم تعد تراك؟

- ربما لكونها المرأة الوحيدة التي أحببت، وربما لكوني ما زلت أراها كوني وكائنتي والكون وما أكون داخله.

همس لها أحبك، أعلم أنَّك لن تقرأي وبأنني أكتب رسائل لن تصل، لكن ما يزال لدي الأمل بعودة حبيبتي عاليا ذات يوم.

القصة الخامسة:

يوماً ما

من حق كل شخص أن يحظى بفرصة بتجربة ما لديه من أحلام وإن كانت سطحية أو سخيفة للبعض، لكن هذا حقه، بالعيش داخل الكون.

نهضت منذ الصباح الباكر تغمرها سعادة كبيرة ها هي الأيام الصيفية قد بدأت بحلول يوم ميلادها وقد أتمت السبع سنوات، رتبت أمها شعرها وارتدت الفستان المزركشة باللون الأحمر والأبيض، لتبدأ جولتها بين أشقائها وشقيقاتها، كانت بسمة العائلة والأمل كما كان دوماً يقول محمد قبل خروجه إلى عمله، ينظر إلى وجهها مُمسكاً به بين يديه، ويزيح الخصائل الذهبية التي قامت بإخفاء ملامحها لتنعكس السماء الصافية من عينيها، يقبِّلُ جبينها ويشتمُّ رائحة الورد منها، كانت شقيقاتها الثلاث يقفن في مكان غير بعيد، وهنَّ ينظرن إلى هذا المشهد المثالي، لم تكن تلك طعمة الغيرة التي تتأرجح بينهن وإنَّما همسات دافئة بأنها ستصبح بسمة وسط ربيع التاريخ لا بسمة عائلتهم الجميلة فقط.

كانت بسمة فتاة نشيطة مُحبة للعلم والتعلم، تحاول التدرب على القراءة والكتابة بكلُّ ما أوتيت من قوة ومساعدة والدتها جميلة في الأعمال المنزلية، هكذا كانت أيامها تمضي بين شقيقاتها الثلاث وأشقائها الفتية الأربعة، وقد كانت أصغر فرد في هذه العائلة، بالرغم من كوننا نتحدث عن خمسين سنة قد مضت وأكثر إلا أنني أقف إلى جانبها وأنا أنظر إلى وجهها الذي امتلأ بالتجاعيد و شعرها الكستنائي، أمّا عينيها فقد كانتا تحملان زرقة السماء كما كانتا من قبل، تغوص داخلهما تلك الطفلة التي تحدثني عن عيد ميلادها داخل منزلهم القديم داخل أحياء دمشق الميدان في عام ١٩٦٢ ميلادي، لم تكن الأوضاع مستقرة إلى ذلك الحد، لكنها كافية بإمضاء بعض الوقت في سعادة وسلام بين عائلة دافئة ومتحابة.

-بإمكاننا وصف الزمن الذي مضى بكونه الزمن الجميل

- لكل جميل مرارة، كما لكل زهرة شوكة أسفل عنقها..

كانت بسمة تمسك كأس البابونج جالسة على مقعد خشبي أمام شجرة الياسمين المتدلية من أعلى الحائط داخل حديقة المنزل، تبتسم بكبرياء، وهي تتحدث عن والدها كما لو أنه يقف أمامها، لم تمضي الكثير من السنوات قبل أن يحلَّ الفقد زائر في منزلنا بعد سرقة الموت والدي، كانت الحياة تضجُّ داخل الجدران وبين الأشجار تشرق الشمس بسرعة وتغرب ببطء شديد، فقدان الأب لا يعوض يا عزيزتي وإن جُمِعَ الكون بأسره بين يديك، انسابت من عينيها الدموع جففتها بأطراف أصابعها وهي تستعيد

رباطة جأشها، أمسكت كأس من ماء الورد وارتشفت منه القليل عندما جاء أحد أحفادها الفتية إليها، ابتسمت له بسعادة وطلبت مني تأجيل الحديث لوقت آخر لكنني لم أستطع رفض تناول الطعام مع عائلتها وبالأخص طعامها اللذيذ الذي لا يقاوم، اجتمعت العائلة أمام الطاولة عائلتها الكبيرة المكونة من ثلاث أبناء وابنة واحدة، قالت لي بفخر بكون ابنها الأكبر قد تزوَّج منذ عامين ولديه الطفل الذي رأيته قبل ساعة من الآن وبأنّها تحلم برؤية أحلام أبنائها تتحقق وترى الضياء والنور داخل أرواحهم الطاهرة التي كانت قطعة منها هي التي لم تستطع تحقيق ولو جزء يسير من أحلامها.

كانت الساعات التي قضيتها إلى جانب هذه العائلة من أمتع اللحظات التي قضيتها طوال فترة عملي، لا أعلم سبب إصرار ابنها على مجيء استشارية نفسية لوالدتها، بدأت أشعر بأنني بحاجة لاستشارات منها لا العكس، لذلك قررت الذهاب إلى المكتب ومقابلة رئيس العمل وأقوم بشرح صحيح لحالة تلك المريضة، جلست على المقعد الجلدي وبدأت التحدث عن الأشياء التي رأيتها بوضوح.

- تلك العائلة مثالية، أم ذات تجارب وابن مطيع وزوجة ابن مثالية وحفيد جميل وشابان يافعان أعتقد كونهما مغتربان وابنة جميلة كوالدتها لا أعلم ما المشكلة في الأمر؟!

نهض من خلف المكتب وهو يبتسم تلك الابتسامة الخبيثة ويومئ لي إلى التقرير الموضوع على الطاولة الخشبية أمامي وهو يقول لي:

- أعتقد أنَّك للمرة التي لا أعلم عددها لم تقومي بقراءة التقرير المرسل إليك، لم يكونوا بحاجة للعلاج فهو غير موجود ، هذه المرأة مصابة بالزهايمر...
- لا أعتقد هذا فهذه المرأة لديها ذاكرة قوية تجعلها تذكر طفولتها وشبابها بالتفصيل الممل، لا أعلم إذا ما كنتُ سأحاول معالجة نفسي أولاً.

اقترب مني وقال بنبرة جادّة: قومي بعملك على أكمل وجه، هذه آخر فرصة ذهبية فأحرصي على عدم خسارتها.

أعلم هذه النظرات وهذه الطريقة بالتحدث، إذاً أصبحت حياتي المهنية مرتبطة باللاشيء أو هكذا ظننت!

وفي اليوم التالي عاودت الذهاب إلى العائلة نفسها وأنا أعلم جيداً بكوني على حقّ في تقديري لحالتها المرضية، طرقت الباب وانتظرت لبضع دقائق قبل أن يُفتَح لي، اقتربت بكلِّ هدوء أمامها كانت تقف بشموخ وهي تنظر إلي كان الثوب الأبيض يعكس صفاء عينيها المتعبتين، لم أحظَ بالترحيب الذي كنتُ أتوقعه لكن لا بأس، أشارت إلي بالجلوس على الأريكة فوافقتها ومشيت خلفها إلى المكان كانت الشمس في منتصف السماء، قالت وهي تُغلق النافذة بإحكام:

- سمعت من الأرصاد الجوية بأمطار قادمة، لذلك أفضل الجلوس في مكان يحمينا من البرد القارس.
- شكراً لك سيدتي، إذاً هل بإمكاننا الإكمال من حيث توقفنا؟
- وهل تعارفنا من قبل!
- نعم سيدتي في الأمس، وأيضاً..
- عزيزتي، أنا لا أظن بأننا قد جلسنا سوية من قبل ويمكنك الانصراف..
- سأفعل، لكن أود سرد قصة أمامك وبعدها سأرحل.
- إذاً، وما اسم القصة يا ترى!
- يوماً ما...

كانت دوماً تحلم في اليوم الذي سيأتي وتطرق السعادة أبواب المنزل، ذلك المنزل الذي عاشت داخله طفولة جميلة لها مُتعبة لوالدتها الأرملة في هذا المجتمع الذي لا يرحم امرأة شابة تعيش مع أبنائها، رافضة الزواج خوفاً عليهم من الضياع.

توالت الأيام لتصبح امرأة شابّة فأصبحت تعمل خياطة لكن تحت أنظار والدتها..

- هل بإمكاني مقاطعتك ولو قليلاً؟
- بالتأكيد.
- لماذا لم تحاول تلك الفتاة العمل داخل مشغل للخياطة سيفي بالغرض بالتأكيد.

- ربما فعلت.
- لكنك قلتِ تحت أنظار والدتها، أنا أيضاً عملت خياطة في بادئ الأمر تعلمت داخل مشغل خياطة ومع مرور الوقت أصبحت أعمل لصالحي الخاص داخل المنزل.

كانت تلك الأيام التي أمضيتها بالرغم من العمل الكثير والتعب والإرهاق هي أجمل الأيام التي عشتها قبل سفري إلى جدة برفقة والدتي رحمها الله.

- وما الذي حدث بالتحديد في تلك الفترة هل بإمكانك إخباري بما حصل معك؟

أمسكت بسمة منديلها الورقي ومسحت دمعة ذرفت من طرف عينيها، كانت تنظر إلى مكان محدد وكأن الزمن عاد بها إلى الوراء أو أن الذي مضى تجسد لها كفيلم يعرض أمام الشاشات.

تنهدت بعمق وهي تقول بصوت بُحَّ من فرط ضعف الحنين داخل حنجرتها: كنت قد بلغت الواحد والعشرين من عمري وهذا في سنة ١٩٨٠ ميلادي عندما أخبرتني والدتي بأنَّها تنوي الذهاب للحج برفقتي كوني أصغر بناتها والتي أعيش معها نظراً لعدم زواجي قبل الآن، ابتسمت بعمق وهي تنظر إلى داخل عيني وهي تقول؛ إذا أردت رؤية قوس الفرح الملوَّنة يتوجب عليك أولاً العيش داخل أمطار غزيرة لبعض الوقت، مهما كانت الحياة سيئة، أو كُنتِ شخص سيء، ولربما غير ذو نفع، لكل شخص منا مهمة في هذه الحياة، ولديه موهبة كامنة داخله لم يكتشفها بعد!

من حق كل شخص أن يحظى بفرصة بتجربة ما لديه من أحلام وإن كانت سطحية أو سخيفة للبعض، لكن هذا حقه، بالعيش داخل الكون.

- وهل أخذتي هذا الحق من الحياة؟
- نعم، وقد قُمت بعفلها بشكل جيّد.
- إذاً، وما الذي حصل معك بعد نجاحك المبهر على الأقل لقد حققت حلمك أليس هذا صحيح؟!
- نعم، وربما، إذا أجبتك بالإيجاب كذبت، وإن أجبتك بالنفي أكون قد بالغت، لم يكن الأمر كما هو المتوقع، أو بالأحرى لم أستطع الوقوف لوقت طويل، تزوجت بشاب من عائلة متدينة وقد دفنتُ أحلامي داخل صندوق مظلم كما أراد لي المجتمع من حولي، لست من الأشخاص الذين يقوموا بتعليق فشلهم على شمّاعة الأسباب القدرية، أعلم أنني كنت ضعيفة جداً، لذلك استسلمت قبل تناول عزيمتي الواهية التي صنعتها مخيلتي قبل حتميتها
- من المؤسف قول ذلك، لكنني ما زلت لا أعلم سبب قنوتك، فأنتِ امرأة قوية لديك شاب مهذب و جميل الخَلقِ والخُلُق وزوجة ابن وحفيد وأبناء من حولك...
- هؤلاء أصدقائي لا عائلتي، محمد شاب طيب الطباع، كنتُ له مثل والدته التي رحلت عن الحياة منذ أمد بعيد، ولكنني لم أنجب أو لم يُقدر لي ذلك، عشت دوماً كالنخلة التي لا تجلب الثمار فأصبحت محل الشؤم للجميع -غراب البين- كما يُقال، تعلمت منه بأن الأنثى تولد أم بالفطرة وإن لم تنجب، لكن الأبوة بالتجارب والخبرات، أما عنه فقد شعرت معه بدفء العائلة لم أشعر ليوم واحد بأنني شخص غريب، ولم يكن لي رغبة بالعودة للماضي أو حتى الندم على شيء ما فاتني، قال لي بأنني وإن لم أذكره يوماً ما سأبقى أمه التي عاش معها في هذه الحياة.
- ماذا عن الشابان والفتاة؟!
- هؤلاء أبناء شقيقتي، كنت لهم الصديقة المقربة وصندوق الأسرار.
- ماذا عن زوجك!؟
- غادر حياتي بالكامل بعد معرفته بكوني لم أعد قادرة على رعايته.

لم يكن لدي الكثير لأقوله لذلك اكتفيت بالصمت المطبق قبّلتُ جبينها وغادرت المكان، كانت هذه التجربة الأجمل في الحياة الكثير من الأشياء الجميلة والسيئة، فهي لم تكن مصنع تحقيق المعجزات، إذا أردت الوصول عليك التحلّي بالصبر فتنهض وتقاوم.
الزهايمر وإن كان مرض لا علاج منه إلا أنني أعلم جيداً بأنه لم يكن مرض خطير بهذا الشكل.

القصة السادسة:

بوح

أعلم تماماً بأنني لم أستطع معرفة حجم الألم الذي تركته داخلها إلا بعد مرور الكثير من الأعوام، ربما أصبحت أكثر وعياً لما يحصل من حولي، أو أكثر حُزناً من ذي قبل.

البوح أحياناً مُتعب جداً، يورثك ألماً أشدُّ من الصمت، فالكلام يثقل ويجهد القلب لا الكتفين ويؤرق ويثقل العقل والقلب لا العينين.
أن تبكي بعين قلبك وتقف بروحك، ليست العبرة بأن تنجز وتضحك وترنو إلى الجانب المشرق، لا عيب في أن تقف حتى تأتي معك روحك، الظلم أن تذهب وتتركها وحيدة في الظلام، بأن تتجاهل كل شيء وأنت تعي كل شيء، أمسكت ورقة بيضاء للمرة الأولى التي أحاول كتابة شيء ما ولربما هذه المرة الأولى التي أقوم بها بإرسال رسالة لغائب.
إليك أيها الغائب.
اشتقت إليك، مضى على رحيلك بضع سنين، كانت عجاف على روحي وقلبي وقد بدأت الاعتقاد بكون هذا العام الذي سأغاث فيه اقترب، فهل في العودة أمل؟!

لم تكن للأيام أي علاقة بما يحصل معي من ضيق أو حزن، يبقى الزمان من الأشياء الثابتة كالساعة التي تتسابق عقاربها بشكل روتيني، كالحمام الزاجر الذي يهاجر في نفس التاريخ السنوي تحديداً، وشروق الشمس بعد ليل طويل، لست امرأة سيئة ولست بالجيدة لم أكن ذو نفع أو حتى ضرّ، تعود بي الذكريات إلى تلك الحادثة التي أرقت جفني وأبعدت النوم والسكينة عني.

رأيت من بعيد فتاة شابة بعقدها الثلاثين، منهمكة بإزالة الفضلات المتبقية من الطعام المتواجدة على إحدى الطاولات المستطيلة الشكل عند زاوية المطعم، ربما لم تكن فتاة مثالية، تأملت ملامح وجهها التي تدلّ لكونها مرهقة لكن مسحة الأمل المتواجدة داخل عينيها تعطيك معان متداخلة، حاولت الاقتراب منها التحدث إليها، لكن مصطفى قام بمنعي في اللحظة الأخيرة ممسكا يدي، همس في أذني هيا بنا نجلس، راقبي بهدوء ولا تستعجلي.

تبعته بخطوات مترددة حتى وصلنا إلى وجهتنا التي حددها بنفسه، وطلب من النادل إحضار كوبين عصير لكي نخفي آثار الجريمة، التي سأقوم بفعلها كما ردد لي!

أما هو فقد قام بالجلوس أمامي ومطالعة الجريدة اليومية دون إبداء أي اهتمام.

قال لي وهو ينظر إلى عامل النظافة الجالس على الرصيف يرنو بعينيه إلى باص المدرسة الابتدائية:

بلغ حالة من الإحباط أورثته ارتخاء عضلياً.. حتى أنه لو قرر الانتحار لما وجد القدرة على رفع قدمه فوق
سور الشرفة، هذا إذا افترضنا بوجود شرفة داخل منزله البسيط!!

أعاد النظر إلي ونظر إليها وكأنه يحاول قول شيء يخفيه بإحكام ويتوجب علي معرفته بسرعة وهو يقول لي هذه العبارة أخذتها من كتاب قرأته للتو، انحنى للأمام وقال لي بصوت منخفض هل ستقومين بالتحدث إليها أم أنَّك تنتظري إشارة المرور، ضحك بشكل هستيري ونهض من على الطاولة وغادر دون إيضاح الهدف من القدوم أو حتى رحيله المفاجئ.

لكنني أعلم تماماً بأنني لم أستطع معرفة حجم الألم الذي تركته داخلها إلا بعد مرور الكثير من الأعوام، ربما أصبحت أكثر وعياً لما يحصل من حولي، أو أكثر حُزناً من ذي قبل.

كانت راما إحدى ضحاياك إلا أنها لم تكن الأخيرة، أما عني فلم أكن ضحية ولو لمرة واحدة، لست مختلفة عن باقي الفتياة لكنني كنت أعلم ما أنت عليه من خيانة ولكنني بادرت الصمت على المواجهة.

لكنها المرأة الوحيدة التي أشعرتني بخسارتي لك على الرغم من كثرة النساء من حولك وذلك بعد رؤيتي داخل غرفة النوم صندوق أسود وُضِعَت داخله رسائل بشكل مُنمّق، أغلقت الباب بإحكام وبدأت فتح الرسائل واحدة تَلو الأخرى وقد كررت قراءة إحدى

الرسائل حتى حفظتها لذلك سأرددها عليك لتعلم ما الذي أقصده بالضبط.

وحيدةٌ هي أيَّامي دونكَ يا عزيزي، يأكلُ الوقتُ داخلي على مهلٍ، وأنا أقفُ عند الزاويةِ التي لطالما اعتدتُ الذهابَ والاختباء داخلها إذا ما شعرت بالحزنِ يداعبُ روحي، قبلكَ لم تكنْ الأيام تمضي لأحسن حال، لكنني كنتُ قدْ اعتدتُ على برودها ولزاجتها، لطالما واجهت كل شيء يصطدم بي بقوة دون الاعتقاد، أو حتى الالتفات،

لكن بعدكَ أصبح لديّ الكثير من المعتقدات، الأشياء الثمينة التي يجب عليّ الاهتمام بها، وأنا الآن أعلم جيداً بأنني لم أعد في هذه الحياة من يتوجب علي الاهتمام به وتفاصيله اليومية، فالحب؛ مثل الجرح الذي لا يندمل، نعم نعتاد على الألم، ولربما أصبحنا أكثر إتزاناً، لكن الحب لا يرحل حتى بعد مرور الكثير من الأعوام.

أقف على الشاطئ الأزرق وأهتف داخلي، ما زلت وحيدة، وكيف لا وأنا الآن بعيدة عنّي بشكل لا يليق إلا بك، ما زلت أحبك جداً، لكنني أصبحت أكثر نضجاً من بوحها لكَ بذلك الشكل السخيف، أعلم أنّك تحبّني أيضاً لكنّك أصبحت أكثر غروراً عن ذي قبل من الاستسلام والخضوع لها.

هل ترى كم أننا مازلنا كما نحن بغرينا الهوى، وتداعب الجفون نسمات الحنين، لكن نبقى نحن لا الشوق يصلنا، ولا الحب يضنينا.

أعلم بأنني شعرت بصوت كبريائي يتهشم بين يدي ليس لكونها قد غادرتك قبل أن تقوم بالرحيل عنها، ولا كونها اكتشفت كونها الفريسة التي قمت باصطيادها ذات نهار صيفي، بل لكونك أحببتها فعلاً حتى قمت بالاحتفاظ بجميع الرسائل التي قامت بإرسالها إليك دون القلق أو التفكير في رؤيتي لتلك الذكريات.
في وقت سابق كنت تحاول إخفاء آثار خيانتك، إلا أنَّك هذه المرة لم تكتفِ بعدم اكتراثك معرفتي بعلاقتك الغرامية بل بالتحدث إليّ بشكل

واضح وصريح، لم أعلم يا مصطفى بأنَّه اليوم الأخير أو أنَّه الوداع البغيض، إلا أنني أعلم جيداً بإنَّك قمت بتقديم هدية جميلة لا تقدر بثمن ألا وهي الشجاعة بالاعتراف بالحقيقة الكامنة وراء هواجسي و المخاوف بترك يدك والعيش خارج عالمك.

في ذلك اليوم نهضت من مكاني وأنا أمشي إلى المكان التي تقف به، كانت تعمل بنشاط وفي وجهها مسحة أمل وحزن في آن معاً، نظرت إليّ بطرف عينيها وأشارت لي بالجلوس، ذهبت إلى الطاولة وجلست مقابلها أمام النافذة، كانت ترتدي فستان مزركش قصير تجلس باتزان وهدوء وقبل البدء بالحديث وضعت أمامي

العديد من الصور الفوتوغرافية تعود لزمن بعيد، التقطت البعض منها وبدأت التقليب بينهم وهي تروي لي تفاصيل كل صورة، لم أكن أصغي لصوتها وقد كانت الصور تروي حكاية حب، لا يمكن وصفها ببضع كلمات، أمسكت يدي فتنبهت للدموع المنسكبة على وجهي.

- أيّ الأمرَّين أصعب الخيانة أم الحقيقة!
- كليهما معاً، كانت خيانة وحقيقة..
- لكنني رحلت منذ أمد بعيد، حتى قبل لقاءك به، وقد كان رجلاً خائن في كل الأحوال فلماذا قررت المواجهة هذه المرة، وأيّ مواجهة إنه الماضي والوهم والسراب.
- لم تكوني وهم أو ماض أو حتى سراب، كنت أعلم بخيانته لكنها ما تزال نزوة، وفي المرة الأخيرة التي أعطاني بها ميثاق أمام ابنتنا الصغيرة، قال اسمك للمرة الأولى أشعر للخوف رائحة قويّة نفّاذة، وفي عيد ميلادي تكرر الأمر، في البداية لم أكن أشعر بالخوف، لكن في النهاية بدأت أشعر بكِ حتى غرفة النوم والسرير.
- ربما لم يعد للخيانة، بل قرر التوقف لإنهاء الحرب بينه وبين الماضي الذي ما يزال يجلس داخل حقيبته.

أخرجت ورقة بيضاء وقامت بدفعها أمامي وهي تنظر عبر النافذة

عزيزتي راما.

هذا أنا حبيبك أو حتى عدوّك ربما يكون لك فارق كبير، لكنني أعلم جيداً بأنني لا زلت معك وهذا يكفيني.

كيفك حالك، أما زلت تحاولي مساعدة والدك لتأمين دخل عائلتك؟

أراكِ كل يوم وأنا أذهب إلى عملي، لا أعلم إذا أصبح من الواجب عليّ القول بأنّي أحسدك على هدوءك قوتك، ورباطة جأشك.

أما أنا بعد رحيلي حاولت إيجادك في العديد من النساء والفتيات لكنني لم أجدك، لذلك قررت التوقف وعدم الركض نحو المجهول، وللمرة الأولى أرى بها زوجتي التي اختارتها والدتي، زوجتي سها كانت محقة تماماً أنا رجل أناني محب للنساء لا أكثر، رأيت عينيك والغضب الذي يلتهم جوفي كل ما قمت بفعل أحمق، قمت بترديد اسمك لمرات عديدة حتى استشاطت من الغضب بطلب البوح بالحقيقة، لم أستطع إخبارها

فماذا أخبرها إنّك حبيبتي الأولى في الماضي والحاضر والمستقبل، أو لأنّك المرأة التي تخاف منها أمي فأبعدتني عنها وأورثت زوجتي تلك المخاوف، كنت أود القول بأنك حبيبة الوجد والحروف والسماء للوجود، لكنني آثرت الصمت على البوح، وهذا القرار أصبح طوع يدكِ إن شئتِ أخبريها أو لا تفعلي.

في النهاية لا يوجد شيء ليس له نهاية، حتى سها ستكون قوية كما فعلتي أنت.

في ذلك اليوم لم أجد سوى ماضي وأنت وهي وخيانة لم ترتكب، بل حقيقة طرقت أبواب الحاضر فأصبحت المستقبل.

القصة السابعة:

إليك يا أمي

عذراً يا أمي عن ساعاتك التي قضيتها في إعداد الطعام للعائلة عوضاً عن الاهتمام بنفسك، لكن الخبر الأجمل أنني لم أعد طفلاً أنا الآن شاب مهذب وسأعتني بنفسي جيداً وسأحاول القيام بمساعدتك.

كانت المعلمة ترتب الرسائل حسب الحروف الأبجدية وهي تنظر إلى العيون المتشوِّقة والمتلهفة للاستمتاع في هذا اليوم السعيد، وقد كانت قد طلبت من كل واحد كتابة رسالة نصية على ورقة بيضاء لأمِّه في هذا اليوم المميز ألا وهو عيد الأم، ودَّعت الأطفال وهي تنظر إلى كريم كان طفل هادئ الطباع لا يشارك في أيّ نشاط ولا يقوم باللعب مع أصدقائه على الرغم من محاولاتها الكثيرة في جعله يندمج مع أقرانه منذ بداية العام الدراسي، إلا أنها لم تستطع النجاح.

وصلت إلى منزلها وجلست إلى المكتب، بدأت تتصفح الظروف الكرتونية الشكل كانت تحمل ألوان مبهجة وذات طابع حيوي عدى عن ظرف كرتوني أبيض اللون، رُسِمت مخطوطات مانديلّا أيسر الزاوية الخلفية، لفت انتباه المعلمة عنوان الرسالة، ليتني طفل صغير قطبت حاجبيها وابتسمت بلطف وهي تقول ومن هو الطفل الجميل الذي لم يعد يشعر بكونه صغيراً!

فتحت الظرف ببطء حتى تستطيع إغلاقه فيما بعد لكونها قامت بوعد الأطفال بعدم قراءتها الرسائل قبل مجيء الغد.

إلى أمي.

ما زلت أذكر هذا اليوم من العام السابق عندما ذهبنا سويَّاً إلى الحفلة السنوية في الجمعية الخيرية التي تعملي بها، كان الجميع ينظر إلى بغضب وجاءت إليك إحدى الأمَّهات وقالت لك بصوت منخفض:

- لماذا جئتِ بهذا الفتى إلى الحفل هل سيعي ما يحصل أمامه، أم سيلعب مع الأطفال من حوله فهو طفل مريض.

نظرتي إليّ بحزن وعينين يملأها الغضب وأنتِ تقولي لي: اذهب وأجلس عند المقاعد الخلفية.

قُمتِ بإعطائي قصة أليس في أرض العجائب وأنتِ تشيري إلى المقعد الخلفي الأخير، لم أشعر بالحزن لنفسي لكنني شعرت بالألم من أجلك أنتِ فالله أعطاكِ طفلاً مثلي لا كبقية الأطفال من حولي، أعلم جيداً بأنني لا أستطيع سماع الأصوات الكثيرة ومعرفة الكثير من الوجوه فهذا يسبب لي الألم الشديد، فقد اعتادت روحي على الجلوس وحدي أمام شاشة التلفاز أو

الحاسوب في ملاذي الآمن وعالمي الجميل بعيداً عن صراخك الدائم أو حتى شجارك مع والدي.

عندما كنتُ صغيراً كنت من الأطفال المحبين للعب والاكتشاف للعالم من حولي، لكنك قمتِ بمنعي بإبقائي داخل غرفة النوم وحيداً وهذه هي أكبر مخاوفي وقد كنت أحاول الغناء أو حتى الرحيل من داخل هذا الخوف ببناء عالم آخر داخل مخيلتي لعائلة سعيدة أنا الطفل المحبوب داخلها.

عذراً يا أمي إن لم أكن الطفل المثالي الذي تفضلين، لكنني طفلك الذي يحبك.

عذراً يا أمي عن ساعاتك التي قضيتها في إعداد الطعام للعائلة عوضاً عن الاهتمام بنفسك، لكن الخبر الأجمل أنني لم أعد طفلاً أنا الآن شاب مهذب وسأعتني بنفسي جيداً وسأحاول القيام بمساعدتك.

وفي النهاية أحبّك جداً.

ابنك كريم.

كان كريم طفل مصاب بطيف التوحُّد، والدته كثيرة الشكوى لكونه لم يكن كبقية الأطفال، شعرت تلك المعلمة في الدموع على وجنتيها، هل كريم هو المصاب بمتلازمة داون، أم المجتمع من حوله.

عادت بها الذكريات إلى سنوات الدراسة السابقة، تلك المعلمة ذات الوجه المستدير التي كانت تقوم بإعطائهم اللغة العربية بشكل مميز عن بقية المعلمات، تحكي لهم أخبار الشعراء وقصص الانبياء والصالحين، لكن ما تلبث أن تجلس وحيدة.

لو أن القدر يقوم بجمعها ذات صدفة بتلك المرأة الجميلة والدافئة لكانت أجمل هدية في هذا اليوم المميز، لذلك قررت التوجه نحو صديقاتها اللواتي شهدن تلك المقاعد الدراسية علَّها تجد طريق الوصول إلى مكان سكنها أو حتى معرفة أخبارها.

لم تكن تعتقد بأنها ستمضي عدة أيام قبل الوصول إلى صديقة من تلك الأعداد الكثيرة التي قامت بتذكرها لكن لا بأس على الأقل ستجد لديها الإجابة الشافية أو هذا ما كانت ترجوا في سرّها!

وقفت أمام السور القائم إلى جانب الجامع الأموي، عادت بها الذكريات إلى الرحلة الأولى التي أقامتها المدرسة مع تلك المعلمة التي اقترحت إعطاء الدرس في تاريخ دمشق القديمة وأسوارها خلال جولة داخل الأحياء، لتبدأ تلك الرحلة من سوق الحمدية، أخذتها رائحة الحنين إلى الداخل لتجلس إلى جانب مقام يوحنا المعمدان السيد يحيى الحصور عليه السلام، وهي تنظر إلى الأطفال الذين يركضون بفرح وسرور، تنهدت بعمق و هي تسند رأسها إلى الجدار وما زالت تؤمن بوجود حارس وراء كل باب من أبواب دمشق القديمة يقوم بحراسة العاصمة الأجمل والأكثر عراقة، تذكرت وجه المعلمة وهي تحكي لهم أسطورة دمشق منذ بدء ولادتها.

وسبب تسمية دمشق بهذا الاسم هو: من أقدم الوثائق التي ذكرت فيها دمشق على مرِّ التاريخ رُقم مدينة إيبلا العائدة إلى حوالي عام ٢٠٠٠ ق.م، إذ وردَ ذكرها تحتَ مُسمَّى داماسكي كما أن ذكرها جاءَ أكثرَ من مرَّة في النصوص المصريَّة القديمة، ومن أبرزها ألواح تحتمس الثالث العائدة إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، حيثُ ذكرت باسم تيمساك، وفي رسائل تل العمارنة باسم تيماشكي وفي الفترات التي تبعت ذلك تعاقبت عدة أسماء عليها مع كل دولة جديدة كانت تحكم المنطقة، فأطلق عليها الآشوريون دَمَشْقا وأحياناً استخدموا اسم إيميري شو أيضًا، والآراميون كانوا يُطلقون عليها اسم ديماشقو، كما ورد اسمي دارميساك أو دارميسيق في بعض النصوص الآرامية الذي قد يَعني "الدَّار/الأرض المسقية" أو "المكان الوافر بالمياه" أو "أرض الحجر الكلسي".ومنه في العصور الأنتيكية، عرف في اللغة اللاتينية، ومنها اللغات الأوروبية المعاصرة ببعض التحريف في النطق ليُصبح داماسْكُس (باللاتينية: Damascus).

كانت ومنذ الطفولة تذهب مع والدها مدرس التاريخ لزيارة آثار وعوالم دمشق القديمة وأبوابها ولها عدة أبواب حولها، فقد كانت عبارة عن قلعة كبيرة ومملكة يجوبها المسافرون من عدة بلدان، وقد قاموا منذ الأمد البعيد ببناء تلك الأبواب حول أسوارها لحمايتها وهي:

باب توما، وهو الحي الذي تقطن داخله يقع في الجهة الشمالية الشرقية للمدينة القديمة قرب حي القصاع

سُمّي باب توما بهذا الاسم نسبة للقدّيس توما أحد رسل المسيح الاثني عشر حيث كانت دمشق مقصد ومنطلق للرسل والقدّيسين على مرّ التاريخ، يقع باب توما في الجهة الشمالية الشرقية من مدينة دمشق القديمة، بُني أول مرة في عهد الرومان وأُعيد بنائه في زمن الملك الناصر داوود ١٢٢٨ م.

باب الجابية، يقع في الجهة الغربية من المدينة القديمة عند مدخل سوق مدحت باشا حاليًا، والذي تذهب إليه في كل عيد وتمشي داخله على مرّ السنوات ومنه تأخذ حاجياتها

باب الجابية من أبواب دمشق الرومانية في الطرف الغربي للمدينة، وهو مكرّس لكوكب المشتري الذي يمثّل الإله (جوبيتر)، وكانت له ثلاث بوابات، الوسطى كبيرة، وعلى طرفيها بوابتان أصغر، ومن هذا الباب دخل أبو عبيدة بن الجرّاح صلحا عند فتح دمشق سنة ١٤ هـ. وقد جدّد أيام نور الدين الشهيد وعمل له باشورة سنة ٥٦٠ هـ، ثم أيام الملك الناصر داوود الأيوبي. واليوم لم يبق من الأبواب الثلاثة سوى الباب الجنوبي الصغير. أمّا حول اسمه فقد نسبه المؤرّخون العرب إلى قرية الجابية في إقليم الجيدور الغربي بحوران لأن الخارج إليها يخرج منه، وهذا وهم فالاسم محرّف بالتواتر عن اسم جوبيتر الإله الروماني

باب كيسان، يقع في الطرف الجنوبي الشرقي للمدينة القديمة قرب منطقة الصناعة وحارة اليهود سابقا ودوار حسن الخراط خارج سور المدينة القديمة. (تحوّل الباب إلى كنيسة)

يقع حاليا في نهاية شارع ابن عساكر من الشرق وكانت أبواب دمشق أيام الرومان تسمى بأسماء الكواكب فكان اسم باب كيسان باب زحل نسبة إلى كوكب زحل وكانت عليه صورة لكوكب زحل ويتميز الباب بجماله ونقوشه الرائعة.

باب السلام، يقع إلى الشرق من باب الفراديس على منعطف من السور يجعل اتجاهه نحو الشرق.

سمي الباب بالسلام حسب رواية ابن عساكر، لكن اختلفت الروايات حول أصله فقال البعض انه من أصل روماني، حسب أبواب دمشق القديمة التي تعود للعصر الروماني. إلا أن آخرين قالوا ان نور الدين زنكي قد يكون هو أول من أنشأه سنة ١١٦٤ م ثم جدده الملك الصالح
أيوب سنة ١٢٤٣ م، وهو ثاني باب أيوبي أنشئ بعد باب توما، ويشبهه بقوسه وكوته وشرفتيه ويمتاز عنه أنه لم يرسم في عهد المماليك، ولم يزل في حالة جيدة.

باب الفرج، يقع في الجهة الشمالية من سور المدينة، بين العصرونية والمناخلية.

باب شرقي، يقع عند المدخل الشرقي لمدينة دمشق القديمة، وهو الوحيد الذي يحتفظ بطراز عمارته الروماني.

باب الفراديس، (يعرف أيضًا بباب العمارة)

وسُمّي باسم باب الفراديس لكثرة وكثافة البساتين المقابلة له قديما ويؤدي الباب إلى حي العمارة (أحد أحياء مدينة دمشق القديمة) وهو من الأبواب الأساسية في السور الروماني للمدينة وكان يُسمّى قديما باب عطارد نسبة إلى كوكب عطارد حيث كان لكل باب من أبواب دمشق اسم إحدى الكواكب أو النجوم أيام الرومان.

باب الصغير، يقع في الجهة الجنوبية للمدينة قرب حي الشاغور.

يقع في جنوب مدينة دمشق العاصمة السورية. شُيّد على أنقاض باب يوناني، وهو بدوره بُني على أنقاض باب آرامي. نسبه اليونانيون إلى كوكب المشتري ورمزه كبير الآلهة زفس أو زيوس (Zeus)، وهو إله السماء والأمطار والرياح والصاعقة، ومقره جبل كاسيوس (الأقرع). ويعادل الإله بعل العربي والإله جوبتير (Jupiter) الروماني. والذي عُرف باسم جوبتير الدمشقي وعند الحثيين كان الإله تيشوب.

أطلق العرب عليه اسم الباب الصغير لأنه أصغر الأبواب.
وهو بالسريانية «ذكورتا» أي صغير. وعُرف بالعهد العثماني باسم باب الحديد لأنه كان مدعمًا بصفائح حديدية. وأُطلق عليه أيضًا اسم باب الجابية الصغير وباب الشاغور. يُقال بأن يزيد بن أبي سفيان دخل منه قسرًا حينما فتح المسلمون مدينة دمشق. ولكن لا تأييد لهذا القول.

باب الجنيق، غير موجود حاليا، كان يقع بين باب السلام وباب توما.

يقع بين باب السلام وباب توما، وكانت عنده كنيسة حولت إلى جامع، أُقفل الباب ومع ذلك ما زالت بعض آثاره على جدار سور دمشق ظاهرة للعيان ولا سيما القوس التي كانت تعلو الباب.

باب النصر، غير موجود حاليا، كان يقع على الجهة الغربية للسور جنوب قلعة دمشق مباشرة.

كان من أبواب دمشق في الجهة الغربية للسور عند مدخل سوق الحميدية، وهو مختلف في إنشائه بين نور الدين الشهيد والملك الناصر محمّد بن قلاوون المملوكي. أسماؤه الأخرى: باب الجنان، باب الجنان المسدود، باب دار السعادة، باب السرايا.

لقد قامت بزيارة جميع الأبواب الموجودة، عدا عن باب الجنيق والنصر اللذان لم يعودا موجودان منذ أمد بعيد فلقد قامت بزيارة مواقعها التي كانت موجودة بها، للتاريخ شأن آخر لا يعرفه إلا من أحبه، بأن تعود في الزمان وتعيش بين العصور الرومانية والآرامية، تشاهد المماليك والعثمانيين، عبر الآثار ابتداء من جامع بني أمية وهو أكبر مسجد والأجمل على وجه البسيطة وصولاً إلى قلعة دمشق القديمة وقصر العضم، وهو قصر الأساطير والحكايات، أعادها إلى الواقع صوت صديقتها القادمة وهي تتجه نحوها بخطى سريعة.

- لقد وجدت لكِ عنوان المعلمة كان اسمها آسيا، وقد تحدثت معها على الهاتف.

-هل سنقابلها الآن!؟

- نعم، وهي الآن في طريقها إلينا.

كادت تسقط أرضاً لكنها أمسكت بمرفق صديقتها لتنهض من جديد، استجمعت كل قواها الباطنية وهي تستعيد ملامح وجه المرأة التي سكنت ذاكرتها منذ الطفولة إلى الآن، كان قلبها ينبض بشدّة وهي تتجه نحو الفسحة السماوية، وهي تتبع صديقتها إلى أن وصلت لتقف أمام امرأة غزا الشيب رأسها وحنى الزمان ظهرها ليصبح مقوس الشكل، كانت ملامحها التي امتلأت بالتجاعيد تشبه دمشق تماماً، ابتسمت لها وأشارت بيدها للجلوس أمامها، لم تستطع النطق بكلمة واحدة، كانت تنظر إليها بفخر هذه المرة تحدثت لكن بعينيها كانت نظراتهما تعانق بعضها البعض، للحنين صوت لا يسمعه إلا هدير الأرواح عندما تلتقي تصبح الحروف مجرد وسيلة لا جدوى منها.

لم تعلم كم دام اللقاء لكنها لم ترتوي من النظر إليها، إلا أن لكل لقاء بداية ونهاية، اقتربت منها وعانقتها بشدة ثم مضت دون النظر إلى الخلف.

- لا أعلم ماذا دار بينكما، لكنني بتُّ أعلم جيداً بأنه حديث مليء بالحب والحكايات القديمة.

- هذه الجدران القديمة تحكي للمارة قصص وحكايات كثيرة عاشتها وتعايشت معها فعانقتها مراراً وتكراراً، لكن ما النفع إذا كان القلب غير قادر على سماع صوت الحب..

القليل جداً من يستمع لتلك الصرخات، كان كريم الطفل الذي أيقظ داخلي تلك الفتاة التي سكنت داخلي لكنني تركتها عند باب هذا المسجد داخل ضجة الحياة، والآن لم أعد فقط لرؤية الماضي بل لأعيد تلك الطفلة إلى داخل جسدي، منذ زمن وأنا أشعر بفراغ كبير اليوم فقط رحل ذلك الفراغ..

لم تكن لدي أم أعود إليها لكونها رحلت عن دمشق إلى مكان بعيد بعد زواجها، لكنني وجدت بها الأم الحنون والرؤوف، كنت أود لو استطعت كتابة رسالة إلى أمي، ربما كان كريم مثلي رحيل الشخص بعيداً عنك لا يتوجب مغادرته الحياة أو عدم رؤيته يكفي فقط رحيل قلبه وروحه عنك، وإن كان أقرب الناس إليك.

القصة الثامنة:

وتر

يشرح لي عن مقطوعات بيتهوفن، وبعدها يروي لي قصة مقطوع باخ التي جمعته في زوجته الراحلة ذات خريف

قال لي العجوز الجالس أمامي على المقعد الخشبي في الحديقة ذات خريف وهو ينظر إلى الأوراق المكدّسة بين يدي بصخب من مختلف الأحجام وبضع ظروف باللون الرمادي الفاتح، تبدو عليهم علامات لكونهم أصبحوا منسيين مثلي أو مثل الوتر الذي انقطع من الكمان ذات أمسية فرحلت عنه عوضاً عن إصلاحه.

-هذه رسائل إلى الغائب، مرة أخرى!

-نعم، هي له لكنَّها لم ترسل بعد، هذه الرسائل كتبت الغائب.

- لماذا لا تقومي بتدوين اسمه، ولماذا تقومي بالكتابة لشخص غادر حياتك!؟

-هو الغائب الميت أكتب إليه لأبوح بدواخلي كما كنت أفعل عندما كان موجود..

- وهل الحنين لشخص قد رحل عن الحياة عمل صائب!؟

- الحنين لا يكون إلا للأشخاص الغائبين رغماً عنهم، أما الغائبين بدون أسباب مقنعة فهؤلاء لا حنين لهم..

حزمت أغراضي ونهضت من على المقعد لأغادر إلى المنزل فقد كان الوقت قد تأخر والشمس عند المغيب، نظرت إليه وابتسمت بهدوء دون نطق كلمة واحدة واستدرت استعداداً للرحيل عندما قال لي كلمته الأخيرة..

-وتر الحنين إن كان منقطع لن يعطيك اللحن الجميل والمتناسق..

- السيمفونية التاسعة في الساعة الخامسة مساءً الأول من نيسان.

- سأكون هناك، لكن حاولي إصلاح الوتر قبل الموعد المحدد.

- سأحاول.

مضيت في طريقي وأنا أفكر في الحوار الذي دار بيني وبينه، بالرغم من عدم معرفتي لاسمه إلا أننا كنا نتحدث لساعات طويلة، ويأتي إلى الأمسيات الموسيقية ليستمع إلى عزفي باهتمام مبالغ به بعض الشيء، يشرح لي عن مقطوعات بيتهوفن، وبعدها يروي لي قصة مقطوع باخ التي جمعته في زوجته الراحلة ذات خريف، ومنذ ذلك اللقاء قبل نصف قرن من الآن وهو يستمد السعادة والإلهام لحياة مليئة بالحب من هذا الفصل الذي كنت ولا زلت أراه الفصل الرمادي، به تسقط الملامح فلا يستطيع أحد معرفة الطرقات إلا من الأشجار الواقفة إلى جانب منزله.

ربما لكوننا افترقنا في هذا الفصل من السنة تحديداً،

اشتقت إليك لكنني لا أودُّ اللقاء بك.. هذه هي الكذبة الصادقة التي سأبوح بها أمامه وأنا أنظر داخل عينيه، لم يكن حبيبي ذات يوم إلا من خلال صندوق أسراري المخبأ تحت السرير والذي لم أطلع عليه أحد سواي.

من قال بأن الشوق إذا داعب القلب والروح يصبح اللقاء هو الشيء المحتم في الوقوع، وفي بعض الغياب الكثير من الراحة للوقوع في آثام الخطيئة والذلل، هو مرة صديق وأخرى قريب وفي بعض الأحيان زميل لي في العمل ليعود في نهاية الأمر غريب لن ألتقي به حتى في الصدف والمناسبات الرسمية!

انتظرت كثيراً قبل مجيء الباص الذي يقوم بتقليد في كل يوم إلى العمل، وأنا أنظر إلى الساعة التي أضعها في معصمي، لكنه أتى وهذا الشيء الذي لن يدهشني مثلما تشرق الشمس في كل يوم لتغرب عند المغيب، كان هذا قابل للوقوع، لكن جلوسي على المقعد إلى جانبه في اليوم الأول من هذا الشهر هو ما كان ليس في الحسبان.

-أُحبُّك" قالها همساً

لم أود النظر إلى ملامح وجهه، لكنني أحببته حتى حفظت نبرة صوته والبحّة العالقة به كما يحفظ الطفل رائحة أمه.

كنت أحاول النظر إلى الركاب من حولي دون الالتفات إليه، ولربما أردت الفرار منه كي لا يرَ الضعف الذي أكل قلبي بعد رحيله.

بدأت الاعتقاد بكونه لم يرني إلى أن نطق اسمي وهو ينظر إلي بشكل مباشر.

- رهف هل هذه أنتِ؟
- أهلاً عمر، كيف حالك؟
- بخير، وأنتِ!
- بأفضل حال، بالمناسبة هل استطعت الحصول على وظيفة؟
- نعم، وأنا الآن متزوج بالفعل وسأصبح أب في القريب العاجل.
- مبارك لك يا عمر لم أكن أعلم.
- نعم فقد مضى الكثير من الوقت، أو السنين على ما أعتقد، هل اشتقت لي.
- نعم لقد اشتقت لك، حتى أنني لا أود اللقاء بك!

توقف الكون عند هذا الحد من الحوار بيني وبينه، فأصبحت ملامح وجهه باهتة، كما لو أنه دخل إلى ثقب أسود خلفه انفجار سوبر نوفا لنجم كبير، قبل أن أكمل حديثي قائلة وأنا أخفي صدق ما أبديت

- كذبة نيسان، وهل صدَّقت ما قلت لك للتو!
- لا لا أبداً أعلم أنها كذبة الأول نيسان.

ابتسم ببعض من البرود وهو يدَّعي بأنه قام بتصديق كونها محض كذبة، وأنا أنهيت الحديث لأقوم بإقناعه أنني نجوت، لكن كلانا يعلم حقيقة الأمر ومرارته.

قالت لي صديقتي سندس في ذلك اليوم: هذه كذبة نيسان لا البوح في الحقيقة!

ضحكت بشكل هستيري قبل أن أقول لها: لا أعلم ما هو الفرق، الجميع من حولنا يقوم بالكذب في كل يوم مراراً وتكراراً، لماذا لا نقوم بقول الحقيقة في هذا اليوم بدلاً عن اختراع المزيد الأكاذيب لكن بشكل خيالي أكثر!

-تُمَّت-

الفهرس

القصة	الصفحة
المقدمة	٥
حب على قيد القدر	٦
هوس	٤١
وتمضي بنا الأيام	٧٣
رسائل لن تصل	٨٢
يوماً ما	٩٢
بوح	٩٩
إليك يا أمي	١٠٥
وتر	١١٤